

## الباب الثاني

### الدفاع عن الاسلام: الجهاد السلمي

- الفصل السادس: حديث العشيرة والدار ( صفحة 219 \_ 234).
- الفصل السابع: مرحلة الفدى (235 \_ 250).
- الفصل الثامن: الهجرة الى المدينة (251 \_ 268).
- الفصل التاسع: في المدينة (269 \_ 284).
- الفصل العاشر: الحياة العائلية (285 \_ 322).

## الفصل السادس

### حديث العشيرة والدار

«وأندر عشيرتك الأقرين»: حديث العشيرة والدار الدلالات العلمية للنصوص: 1- سند حديث العشيرة والدار. 2- المدلول العلمي لآية انذار العشيرة: أ- كلمة «أندر». ب- كلمة «عشيرتك». ج- كلمة «الأقرين». 3- التلاعب التاريخي برواية انذار العشيرة. 4- صعوبة موقفه (ص). العشيرة في الدين والمجتمع: 1- مباني انذار العشيرة. 2- الاسلام وتفكيك جاهلية العشيرة.

## «وأندر عشيرتك الأقربين»: حديث العشيرة والدار

عندما أمر رسول الله (ص) بإعلان الإسلام للملأ بعد ثلاث سنين من الدعوة السرية، كان اول من دعاهم (ص) عشيرته الاقربين من بني عبد الملب. فكانت الدعوة في دار عمه ابي طالب، وفيها أمر علياً بأن يصنع لهم طعاماً من طعام ذلك الزمان، لحماً وخبزاً ولبناً. او كما كانوا يعبرون عنه: فخذ شاة، مع صاع من الطحين ووعساً من لبن<sup>1</sup>. وتسلسل الرواية تم بالشكل التالي:

لما نزلت آية: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)<sup>2</sup> على رسول الله (ص)، قال (ص) لعلي (ع): «يا علي، ان الله امرني ان انذر عشيرتي الاقربين... فاصنع لي صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واجعل لنا عساً من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى اكلمهم وأبلغ ما أمرت به. ففعلت ما أمرني به رسول الله (ص) ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون، فيهم اعمامه: ابو طالب، وحمزة، والعباس، وابو لهب. فلما اجتمعوا اليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فحنت به، فلما وضعته تناول النبي (ص)... جذبة من اللحم، ثم قال: كلوا بسم الله، فأكل القوم حتى نهلوا منه ما نرى الا آثار اصابعهم، وأيم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجميعهم. ثم قال: اسقي القوم يا علي، فحنتهم بذلك العس، فشربوا منه حتى رووا جميعاً وأيم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلما اراد النبي (ص) ان يكلمهم بدر أبو لهب بالكلام، فقال: لقد سحركم صاحبكم فتفرق القوم، ولم يكلمهم النبي (ص). فلما كان الغد قال: يا علي سيقني الى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل ان أكلمهم، فعد لنا مثل الذي صنعت بالأمس من الطعام والشراب ثم اجمعهم لي، ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعا لي بالطعام. فقربته، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا وشربوا حتى نهلوا، ثم تكلم النبي (ص) فقال: «يا بني عبد المطلب، اني والله ما اعلم انساناً من العرب جاء قومه بأفضل ما جئتكم به، اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله ان ادعوكم فأيكم يوازرني على امري هذا؟ فقلت: انا - وأنا أحدثهم سناً، وأرمضهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً - أنا يا نبي الله أوازرك عليه فأخذ بربقتي. فقال: هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب: قد أمرك ان تسمع وتطيع لعلي»<sup>3</sup>.

(<sup>1</sup>) العس: العساس ككتاب: الأقدام العظام. الواحد عس بالضم، والعسس بضمين... الآنية الكبار. «القاموس المحيط فصل العين باب السين». فيكون معنى العس: الاناء الكبير.

(<sup>2</sup>) سورة الشعراء: آية 214.

(<sup>3</sup>) «أسنى المطالب» - الوصافي باسناده عن امير المؤمنين (ع). الباب الثالث ص 12. و«منتخب كنز العمال» ج 5 ص 41. و«كفاية الطالب» - الكنجي ص 206.

وفي صيغة أخرى ورد قوله (ص): «وأنا أدعوكم الى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان تملكون بهم العرب والعجم، وتنقاد لكم بما الامم، وتدخلون بما الجنة، وتنجون بما من النار: شهادة أن لا اله الا الله، واني رسول الله. فمن يجيبني الى هذا الامر ويؤازرني...»<sup>4</sup>.

وفي صيغة ثالثة نقلها السيد ابن طاووس (ت 664 هـ)، انه (ص) قال عندما فرغوا من طعامهم: «يا بني عبد المطلب، ابي نذيرٌ لكم من الله جلّ وعزّ. ابي أتيتكم بما لم يأت به أحد من العرب، فان تطيعوني ترشدوا وتفعلوا وتنجحوا. ان هذه مائدة أمرني الله بها، فصنعها لكم، كما صنع عيسى بن مريم (ع) لقومه. فمن كفر بعد ذلك منكم، فان الله يعذبه عاباً لا يعذبه احداً من العالمين. واتقوا الله، واسمعوا ما أقول لكم، واعلموا يا بني عبد المطلب، أن الله لم يبعث رسولاً الا جعل اخاً له ووزيراً ووصياً ووارثاً من اهله. وقد جعل لي وزيراً كما جعل للأنبياء قبلي. وان الله قد ارسلني للناس كافة، وأنزل عليّ: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)<sup>5</sup>، ورهطك. وقد \_ والله \_ أنبأني ان ادعوكم وانصح لكم وأعرض عليكم، لثلا يكون لكم الحجة فيما بعد، وأتم عشيرتي وخالص رهطي. فأيكم يسبق اليها على ان يؤاخيني في الله، ويؤازرني في الله عزّ وجلّ، ومع ذلك يكون لي يداً على جميع من خالفني، فأتحذه وصياً، وولياً، ووزيراً، يؤدي عني، ويبلغ رسالتي، ويقضي ديني من بعدي، وعداتي»<sup>6</sup>. لم يستجب له أحدٌ من الحاضرين.

وبعدهما قام علي (ع)، فأمضى قوله (ص) بالقول: «يا ابا الحسن أنت لها، قضي القضاء، وجفّ القلم. يا علي اصطفاك الله بأولها، وجعلك وليّ آخرها»<sup>7</sup>. ولعلّ هذا امتن ما في الباب من روايات وأقرب الى واقع النبوة . خصوصاً وان السيد ابن طاووس (ت 664 هـ) من المدققين في سند الروايات ومتموها.

وقد ورد حديث العشيرة والدار بأشكال وصيغ أخرى متعددة، لكنها كلها تكشف عن الحقائق التالية:

1- دعوة بني عبد المطلب بن هاشم للاسلام من قبل رسول الله (ص) بأمر الله سبحانه وتعالى. وهم عشيرته الاقربون.

2- رفضهم الايمان بالاسلام وتنكرهم لدعوة رسول الله (ص) ما عدا علياً (ع) بالرغم من حداثة سنّه

- ربما كان على مشارف السنة الرابعة عشرة من عمره- وحضور والده ابي طالب (رض) معهم.

3- اعلانه (ص) ان علياً (ع) وصيه وخليفته من بعده، وعليهم السمع والطاعة.

<sup>4</sup> «منهاج الكرامة» - العلامة الحلي. المنهج الثالث. الدليل الاول.

<sup>5</sup> سورة الشعراء: آية 214.

<sup>6</sup> «سعد السعود» - السيد ابن طاووس ص 105 - 106، نقلاً عن تفسير محمد بن العباس بن مروان بن مهيبار (الثقة) في تفسيره.

<sup>7</sup> المصدر السابق

4- نستلهم من الواقعة انه لم يكن مع علي (ع) مسلم آخر، والا لذكر اسمه خصوصاً وان وليمة بتلك الدسامة لاربعين نفرأ تقتضي مشاركة المسلمين في اعداد الطعام وخدمة الضيوف. وهذا يؤكد ان علياً (ع) كان المسلم الذكر الوحيد بعد رسول الله (ص) لحد ذلك التأريخ، أو على الأقل انه كان المسلم الوحيد الذي يُعتمد عليه في موطن من هذا القبيل.

### الدلالات العلمية للنصوص

ومن الطبيعي، فان من المهم دراسة حديث العشيرة والدار من حيث السند والدلالة اللغوية والقرآنية. ولا بد من التعرض بالنقد للمحاولات السياسية لمحو اسم علي (ع) من شرف الوزارة لرسول الله (ص) في تلك الواقعة التأريخية المهمة.

#### 1- سند حديث العشيرة والدار:

أخرج الحديث بالمتن الذي ذكرناه او قريباً منه العديد من الفقهاء والمحدثين كالمجلسي (ت 1111 هـ) في «بحار الانوار»<sup>8</sup>، والشيخ الطوسي (ت 460 هـ) في مجالسه، و فرات بن ابراهيم ( من اعلام القرن الثالث الهجري) في تفسيره<sup>9</sup>، والطبرسي (ت 548 هـ) في «مجمع البيان» في تفسير (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ).

ومن المدرسة السنية رواه الفقيه برهان الدين محمد بن ظفر الملكي المغربي (ت 565 أو 567 هـ) في «أنباء نجباء الانباء»<sup>10</sup>، وابن الاثير في «الكامل في التأريخ»<sup>11</sup>، وأبو الفداء عماد الدين الدمشقي في تأريخه<sup>12</sup>. ورجال السند كلهم ثقة الا ابو مريم عبد الغفار بن القاسم حيث ضعّفوه لتشيّعه!! بينما اثني ابن عقدة عليه وأطراه وبالغ في مدحه في «لسان الميزان»<sup>13</sup>. وأخرجه احمد في مسنده<sup>14</sup> بسند رجاله كلهم من رجال الصحاح، وهم شريك الاعمش والمنهال وعباد بن عبيد الله الأسدي.

<sup>8</sup> «بحار الانوار» ج 18 ص 191.

<sup>9</sup> فرات بن ابراهيم الكوفي (من المحتمل وفاته في القرن الرابع الهجري) صاحب التفسير المعروف المقصور على الروايات المروية عن الائمة (ع). ص 108 - 109.

<sup>10</sup> «أنباء نجباء الانباء» - المغربي. ص 46 - 48.

<sup>11</sup> «الكامل في التأريخ» ج 2 ص 24.

<sup>12</sup> «تأريخ ابي الفداء» ج 1 ص 116.

<sup>13</sup> «لسان الميزان» - ابن عقدة. ج 4 ص 43.

<sup>14</sup> «مسند احمد» ج 1 ص 111.

وأخرج في مكان آخر<sup>15</sup> عن عفان بن مسلم (الثقة)، عن أبي عوانه (الثقة)، عن عثمان بن المغيرة (الثقة)، عن أبي صادق مسلم الكوفي (الثقة)، عن ربيعة بن ناجذ (التابعي الكوفي الثقة)، عن أمير المؤمنين (ع).

والذين عرضوا هذا الحديث على اختلاف مشاربهم هم من أساتذة الحديث، وأئمة الاثر، والمرجع في الجرح والتعديل، بل والرفض والاحتجاج.

## 2- المدلول العلمي لآية إنذار العشيرة:

ان المدلول العلمي لآية (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)<sup>16</sup> يكمن في تحليلها لغوياً وقرآنياً، واستخلاص نتائج التحليل في الصورة التالية: ان معنى الآية هو انحصار الانذار بيني ابيه الأدين دون قريش، وهم - دون غيرهم من قريش - بنو عبد المطلب بن هاشم.

### أ- كلمة (أنذر):

لغوياً: معنى كلمة أنذر هو: «وأنذر بالأمر إنذاراً، ونذراً، ويضم، وبضمتين، ونذيراً: أعلمه وحذره وخوفه في إبلاغه»<sup>17</sup>.

قرآنياً: هناك موارد يتناول فيها القرآن معنى كلمة الانذار، منها: (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ...)<sup>18</sup>، (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ...)<sup>19</sup>، (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ، إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَازِمِينَ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)<sup>20</sup>. ووحدة السياق في لفظ الانذار ظاهرة، وهو الابلاغ القائم على اساس التخويف والتحذير.

الدلالة العلمية: مقتضى الامر ان خطاب الانذار كان مخصوصاً بالعشيرة الاقربين.

<sup>15</sup> «المصدر السابق» ج 1 ص 159.

<sup>16</sup> سورة الشعراء: آية 214.

<sup>17</sup> «القاموس المحيط» - الفيروز ابادي. باب الرء فضل الهمة.

<sup>18</sup> سورة إبراهيم: آية 44.

<sup>19</sup> سورة الانعام: آية 51.

<sup>20</sup> سورة غافر: آية 18.

## ب- كلمة (عشيرتك):

لغويًا: عشيرة الرجل: «بنو أبيه الاذنون او قبيلته...»<sup>21</sup>. فهنا لفظ «العشيرة» مشترك لفظي بين: بني الأب الأذنين، وبين ما يشملهم مع غيرهم من القبيلة.

قرآنيًا: ورد لفظ «العشيرة» في موارد عدة في القرآن الكريم. يقول تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأَخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ...) <sup>22</sup>، (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ...) <sup>23</sup>، (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفْعَةَ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ. يَدْعُوا لَمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَكَلِّسَ الْعَشِيرُ) <sup>24</sup>. والعشير هو صاحب المعاشرة، وهذه الآية خارجة عن موضوع البحث.

الدلالة العلمية: لا نجد في تلك الآيات الشريعات مدلولاً خاصاً في لفظ «العشيرة». بل ان المدلول العام للفظ هو ان عشيرة الرجل هم قبيلته، او بنو ابيه اذا ضمنا اليه المعنى اللغوي.

## ج - كلمة (الأقربين):

لغويًا: قرب الشيء بالضم يقربُ قريباً، أي دنا. والاقربون: الاذنون.

قرآنيًا: ورد لفظ «الاقربون»، و«ذوي القربى»، و« اولوا القربى»، و«مقربة» في موارد عديدة في القرآن الكريم. منها: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ...) <sup>25</sup>، (... قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ...) <sup>26</sup>، (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى...) <sup>27</sup>، (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ

<sup>21</sup> «القاموس المحيط» للفيروز ابادي.

<sup>22</sup> سورة التوبة: آية 24.

<sup>23</sup> سورة المجادلة: آية 22.

<sup>24</sup> سورة الحج: آية 11 - 13.

<sup>25</sup> سورة النساء: آية 7.

<sup>26</sup> سورة البقرة: آية 215.

<sup>27</sup> سورة الانفال: آية 41.

كأنوا أولي قُربى...»<sup>28</sup> ، (أو إطعامٌ في يومٍ ذي مسغبةٍ . يتيماً ذا مَقَرَّةٍ)<sup>29</sup> ، (... قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...)<sup>30</sup> .

ولا شك ان المراد من لفظ «الاقربون»: الادنون. والمراد من المودة في القربى في الآية الاخيرة هو مودة قرابة النبي (ص) وهم عترته من اهل بيته (عليهم السلام). وهذه الآية مدنية خوطب به المسلمون. وانما أُطلق لفظ الاجر بحسب الدعوى، واما بحسب الحقيقة فالمراد القرب من تعاليمهم (ع)، وجعلهم القدوة في الدين والدنيا عن طريق الحبة.

وقد قيل «ان ذوي القربى لفظ عام خُصَّ ببني هاشم والمطلب»<sup>31</sup> فقد كان «بني هاشم وبني المطلب»<sup>32</sup> ائتلافاً سرى في اولادهما من بعدهما، ولهذا لما كتبت قريش الصحيفة بينهم وبين بني هاشم حصروهم في الشعب دخل بنو المطلب مع بني هاشم، ولم يدخل بنو نوفل وعبد شمس»<sup>33</sup> . ولكن ذلك الائتلاف لا يمكن ان يكون مبرراً في دمج النسب. ولذلك فان ذوي القربى او العشيرة الاقربين منحصرة في بني هاشم دون بقية اولاد عبد مناف.

وكان بنو عبد المطلب بن هاشم هم الشريحة الاخص التي وُجِّهت لها الدعوة. ولا بد من الالتفات هنا الى ان بني المطلب هم غير بني عبد المطلب بن هاشم.

**الدلالة العلمية:** ان قريشاً وان كانت قريية لرسول الله (ص) بالنسبة لسائر العرب، الا ان اهل بيته من بني عبد المطلب بن هاشم اقرب اليه من بقية قريش. وهنا يكون لفظ «الاقربين» واصفاً للعشيرة الهاشمية بمعناها الخاص، ومانعاً من ان يكون المقصود: العشيرة القرشية بمعناها العام أي قريش.

اشارة: لقد كُلف النبي (ص) بتبليغ الدعوة الى عشيرته الاقربين في مرحلة سابقة على امره بتبليغها الى قومه من قريش ثم من عداها من بقية العرب، ثم بقية الناس على وجه الارض. وبذلك كانت مرحلة الدعوة الى الاسلام هي:

1 \_ الدعوة السرية للاسلام، حيث استمرت ثلاث سنوات.

2 \_ الدعوة العلنية ومدتها عشر سنوات في مكة وعشر سنوات في المدينة. وهي على ثلاث مراحل:

<sup>28</sup> (سورة التوبة: آية 113 .

<sup>29</sup> (سورة البلد: آية 14 - 15 .

<sup>30</sup> (سورة الشورى: آية 23 .

<sup>31</sup> «فتح الباري» - ابن حجر ج 6 ص 188 .

<sup>32</sup> (المطلب احد ابناء عبد مناف . فقد كان لعبد مناف اربعة اولاد: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل . وينحدر رسول الله (ص) وعلي (ع) من هاشم بن عبد مناف .

<sup>33</sup> «فتح الباري» - ابن حجر ج 6 ص 187 .

أ \_ العشيرة: (وَأَنْذِرِ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)<sup>34</sup>.

ب \_ قريش بجميع بطونها: (... لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...)<sup>35</sup>.

ج \_ العالم: (... لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...)<sup>36</sup>.

### 3- التلاعب التاريخي برواية إنذار العشيرة:

رويت رواية انذار العشيرة بطرق أخرى، كان محورها اسقاط اسم علي (ع) من شرف الاخوة والوصاية والخلافة بعد رسول الله (ص). ونعرض هنا نموذجاً، وهو ما رواه البخاري عن ابي هريرة قال: قام رسول الله (ص) حين انزل الله: (وَأَنْذِرِ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) قال: يا معشر قريش (أو كلمة نحوها) اشتروا انفسكم، لا أعني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أعني عنكم من الله شيئاً، يا ابن عباس بن عبد المطلب لا أعني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمه رسول الله لا أعني من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليمان ما شئت من مالي لا أعني عنك من الله»<sup>37</sup>.

وعلق عليه ابن حجر في «فتح الباري» بالقول: «هذا من مراسيل الصحابة وبذلك جزم الاسماعيلي. [أولاً] لان أبا هريرة انما اسلم بالمدينة وهذه القصة وقعت بمكة. و[ثانياً] ان ابن عباس كان حينئذ لم يولد، واما طفلاً»<sup>38</sup>. وهذا يكفي في الاستدلال على ان امثال تلك الروايات كانت موضوعة للتقليل من دور علي (ع) في واقعة إنذار العشيرة.

ومن اعجب الروايات في ذلك ما رواه ابن حجر عن الطبراني قال: «لما نزلت: (وَأَنْذِرِ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) جمع رسول الله بني هاشم ونساء وأهله، فقال: يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من النار، واسعوا في فكاك رقابكم، يا عائشة بنت أبي بكر، يا صفية بنت عمر، يا ام سلمة...»<sup>39</sup>. والغريب انه لم يكن قد تزوج حينئذ الا بجديجة بنت خويلد. ولم تكن أي من المذكورات من زوجاته (ص) ولم ين (ص) بأي منهن الا في المدينة. وحادثة انذار العشيرة كانت في مكة لا في المدينة كما هو معروف.

<sup>34</sup> (سورة الشعراء: آية 214).

<sup>35</sup> (سورة الشورى: آية 7).

<sup>36</sup> (سورة إبراهيم: آية 1).

<sup>37</sup> «فتح الباري» ج 8 ص 408، قال البخاري: حدثنا ابو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: أخبرنا سعيد بن المسيب و ابو سلمة بن عبد الرحمن عن ابي هريرة.

<sup>38</sup> «فتح الباري» ج 8 ص 406.

<sup>39</sup> «فتح الباري» - ابن حجر عن الطبراني. ج 8 ص 406.

والطبري (ت 310 هـ) عندما يذكر حديث انذار العشيرة ويصل الى قول علي (ع): أنا يا نبي الله اكون وزيرك، يقول على لسان علي (ع): «... فأخذ برقبتي ثم قال: ان هذا أخي وكذا فاسمعوا له...»<sup>40</sup>. وهذا تحريف لاصل الحديث الذي ذكره الطبري في مكان آخر من تأريخه، فيقول: «فأخذ برقبتي ثم قال: ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم...»<sup>41</sup>. وفيه دلالة على ان الحذف والتبديل كانت له اهدافاً سياسية. فان في اتحاد السند والمتن جزءاً وقيناً بأنه انما غُيِّر من اجل التوهين بولاية علي (ع). وهي المسألة التي وقع فيها الصراع الاجتماعي والسياسي بعد وفاة رسول الله (ص).

#### 4- صعوبة موقفه (ص):

ان جمع عشيرته القربين وفيهم الشيوخ وكبار القوم وفيهم الاخيار مثل ابي طالب وحمزة والعباس، وفيهم الاشرار امثال ابي لهب وغيرهم امرٌ كان فيه الكثير من المشقة النفسية لرسول الله (ص). خصوصاً إذا لحظنا تقاليد تلك البيئة القبلية المغلقة في صحراء الجزيرة العربية. ولذلك عانى رسول الله (ص) من ردود فعلهم المملوءة بالسخرية والتهمك على ابي طالب (رضوان الله عليه). ولا شك ان سكوت القوم عن الاستجابة لرسول الله (ص) وقيام علي (ع) - وهو في أوائل بلوغه - متحدياً القوم، وفي المجلس ابوه واعمامه: حمزة والعباس وأبو لهب يحتاج الى وقفة تأمل.

لقد كان علي (ع) شجاعاً مقداماً متفانياً في ذات الله عزّ وجلّ. وكان تحديه الاعظم يكمن في الاستجابة التامة الرائعة لرسول الله (ص) في وقت كان (ص) يحتاج الى دعم معنوي من ذاك القبيل. وقد دفع علي (ع) ثمن ذلك الدعم بعد وفاة رسول الله (ص) خصوصاً عند سقيفة بني ساعدة وما بعدها من احداث.

#### العشيرة في الدين والمجتمع

قال تعالى مخاطباً نبيّه (ص): (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)<sup>42</sup>. فالقراية تعتبر من الكليات الثابتة في المجتمع الانساني. ولذلك فهي تلعب دوراً مهماً في تنظيم السلوك وفي تشكيل المجاميع البشرية المتميزة في المجتمع. فالقراية او النسب تعتمد على الاعتراف الاجتماعي بما واقارها واحترامها. واحترام القراية - اجتماعياً - يعني احترام العملية الزوجية وآثارها المترتبة على انجاب البنين والبنات من ارحام مترابطة.

<sup>40</sup> «تأريخ الطبري» ج 2 ص 319 - 321.

<sup>41</sup> م. ن. - ج 2 ص 216.

<sup>42</sup> (سورة الشعراء: آية 214).

ولا شك ان شبكة العلاقات النَّسَبِيَّة في المجتمعات الصحراوية كمجتمع مكة قبل الاسلام، لها تأثير فعال على مجمل التركيبة الاجتماعية لتلك المدينة العريقة. فشبكة القرابة لعبت دوراً مهماً في تماسك افراد العشيرة وتضامهم، وكان نظامها يصوغ لونا من الحقوق والواجبات المشتركة بين اعضائها.

## 1- مباني انذار العشيرة:

لقد كان الخطاب الالهي لرسول الله (ص) بانذار عشيرته الاقربين مبنياً على عدّة أمور:

**الاول:** ان بني هاشم، كعشيرة، كانت من اشرف عشائر مكة على الاطلاق. فكان فيهم هاشم «عمرو العلاء» الذي هشم الطعام وثرثد الثريد عندما اصابته مكة السنة الجذباء، وكان فيهم عبد المطلب الذي حفر بئر زمزم فسقى الحجيج الاعظم ووقف بوجه ابرهة عام الفيل من اجل حماية الكعبة، وكان فيهم ساقى الحجيج ابو طالب، وكان فيهم حمزة سيد فرسان العرب وأشرفهم. فدعوتهم الى الرسالة الجديدة كان له تأثير كبير على قبائل العرب وأشرفها. والى ذلك اشير الى ان «السر في الأمر بالانذار للاقربين اولاً، ان الحجة اذا قامت عليهم تعدت الى غيرهم، والا كانوا علةً للبعد في الامتناع»<sup>43</sup>.

**الثاني:** ان قريشاً كانت تعترف ببني هاشم كعشيرة لها جذورها النَّسَبِيَّة وعلاقتها الرَّحْمِيَّة الممتدة الى اعماق التأريخ. فهي العشيرة التي تمتد جذورها الى ابراهيم الخليل (ع)، وقد اشار تعالى الى نسل رسول الله (ص) بقوله: (الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ)<sup>44</sup>. فقيل ان معناه هو: وتقلبك في الساجدين الموحدين من نبي الى نبي حتى اخرجك نبياً.

**الثالث:** ان الاعراف السائدة في تلك البقعة من الارض في ذلك الزمان كانت تقرُّ بأن لافراد العشيرة حقوقاً وإلزامات. وقد اقر الاسلام بعضاً من تلك الاعراف لانها كانت متناغمة مع المباني العقلية. فكان من الازام العربي الاخلاقي ان يدعو (ص) عشيرته الى افضل ما جاء به رجل لقومه وهو الاسلام. ولذلك فانه (ص) قال لهم مخاطباً: «يا بني عبد المطلب، ابي والله ما اعلم انساناً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، ابي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد امرني الله ان ادعوكم...»<sup>45</sup>. وفي صيغة ثانية انه (ص) قال: «... وقد - والله - أنبأني به وسماه لي، ولكن امرني أن أدعوكم، وأنصح لكم، وأعرض عليكم، لئلا يكون لكم الحجة فيما بعد، وانتم عشيرتي وخالص رهطي...»<sup>46</sup>.

<sup>43</sup> ( «فتح الباري» - ابن حجر. ج 8 ص 408.

<sup>44</sup> ( سورة الشعراء: آية 218 - 219.

<sup>45</sup> ( «كفاية الطالب» - الكنجي ص 206.

<sup>46</sup> ( «سعد السعود» - ابن طاووس. ص 106.

ولكنهم، في تلك الواقعة، لم يراعوا حقوق العشيرة بالاستجابة له عداً علياً (ع) وأبا طالب (رض). بل تنكروا له وخرجوا مستخفين بدعوته اليهم. ولكنهم خضعوا له - بعد سنين - مدعنين مستسلمين. فكان (ص) في ضوء اعراف العرب هو المتفضل عليهم.

**الرابع:** ان عمه ابا طالب الذي رعاه في الصغر وحماه بعد نزول الوحي، يمكن أن يُعدّ بمثابة ابيه من الزاوية الاجتماعية بعد وفاة ابيه عبد الله وجده عبد المطلب (رضوان الله تعالى عليهم). والفرق بين الاب الفسلسجي او البيولوجي والاب الاجتماعي هو ان الاب الاجتماعي يتحمل مسؤوليات اجتماعية ويتوقع منه الزامات معينة. فاليتيم الذي حُرِمَ من الابوة البيولوجية يحتاج خلال خروجه الى المجتمع الى ابوة اجتماعية يقوم بها ولي امره الموكل بتربيته.

يقول تعالى واصفاً موقف ابراهيم (ع) من «آزر»: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً...)<sup>47</sup>، (وَإِذْ كَرَّ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)<sup>48</sup>. وقيل ان هذا الذي كان يخاطبه ابراهيم (ع) بقوله: (يا أبت) لم يكن والده، وانما كان عمه او جده لأمه أو زوج أمه بعد وفاة والده. ذلك ان والده كان موحداً غير مشرك، لما تضافر من الروايات على ان آباء النبي محمد (ص) كانوا جميعاً موحدين غير مشركين.

وعندما يعبر القرآن الكريم عن «آزر» عم ابراهيم (ع) بالاب، فانه ربما يقصد - والله اعلم - بالاب الاجتماعي لانه راعيه ومربيه. وهنا، فيما نحن فيه، كان ابو طالب (رض) الاب الاجتماعي لرسول الله (ص) لانه وقف امام المجتمع الجاهلي كما يقف الاب مع ابنه حامياً ومدافعاً ومنافحاً عنه. فكان من ثمرات انذار العشيرة هو ايمان ابي طالب وتثبيت ولاية علي (ع). وهذا بجد ذاته انجازاً ضخماً.

ولا شك ان سلوك الافراد الذي يسيطر على تركيبة العشيرة يكشف عن تكامل النظام العشائري المحدود بحدودها. فللعشيرة رئيسها واشرفها واعضائها الذين يساهمون جميعاً في حفظ تلك الرابطة التي تجمعهم وتجعلهم كتلة واحدة امام الصراعات الاجتماعية.

ولا شك ان العشيرة المؤلفة من عوائل، تهتم كل منها بأفرادها ايضاً. ولكن العائلة تدوب في محيط العشيرة الواسع. فالعائلة، وهي اصغر وحدة في العشيرة، تقوم بالاهتمام بأعضائها عن طريق منحهم الحب والعناية اللازمة التي يحتاجونها. وتعلمهم ايضاً طرق الادارة الاجتماعية والسلطة المحدودة، بالتدرج. اما

(<sup>47</sup>) سورة الانعام: آية 74.

(<sup>48</sup>) سورة مريم: آية 41 - 42.

العشيرة فتبقى الاسم الكلي الذي يربط مجموعة كبيرة من الافراد تحت عنوان وحدة النسب وتضافر العوامل الوراثية الطبيعية.

## 2- الاسلام وتفكيك جاهلية العشيرة:

وإذا كان ابو طالب رئيس بني هاشم وزعيمهم، فهو مكلف \_ حسب العرف العربي \_ بقيادة العشيرة. وعلى باقي الافراد فيها الطاعة والاذعان. وإذا حصل خلاف في العشيرة، فان حلّه يرجع الى سيدها وزعيمها، حيث ان له القول الفصل في تسوية المشكلة. وفي ضوء تلك الافكار نلمس:

أولاً: مشقة الدور الذي قام به رسول الله (ص) وشاركه علي (ع) يوم نزول آية (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ). فقد كانت دعوة العشيرة بسادتها الى مآدبة طعام، ثم دعوتهم الى الايمان بعقيدة جديدة فيه خروج عن العرف العشائري الذي كان يقرر بأن زعيم العشيرة هو الذي يدعوها الى مناسبة كتلك. ولكن نور النبوة وجلالها وجمالها الذي كان طاغياً على رسول الله (ص) هو الذي جبر تلك العملية الشاقة.

ثانياً: قيام علي (ع) \_ وهو أصغر القوم سنّاً \_ بالاستجابة لمطالب رسول الله (ص) بالايمان والمؤازرة خروج ثاب عن عرف العرب، وفيهم أبوه الشيخ الكبير جالس بينهم وأعمامه كبار القوم ومستوهم. ولذلك فافهم سرعان ما استنكروا ذلك وسخروا وقالوا لابي طالب: قد أمرك ان تسمع لابنك علي وتطيعه.

ثالثاً: عدم استنكار ابي طالب ذلك \_ وهو زعيم العشيرة وسيدها \_ له مغزى عظيم، فهو على اقل التقادير سكوت يكشف عن رضاه بالدعوة. ولكننا اذا آمنا بصحة الرواية التي قالت بأنه تكلم في المقام وقال متحدياً أبا لب: «ما احب الينا معاونتك، واقبالنا لنصيحتك وأشد تصديقنا لحديثك. وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وانما انا احدهم، غير اني اسرعهم الى ما تحب، فامض لما امرت به فوالله لا أزال أحوطك وامنعك...»<sup>49</sup>، فاننا نكون قد فهمنا اسرار دفاعه المستميت عن محمد (ص) امام قريش. وفيها دلالة على انه كان قريباً من الاسلام إن لم يكن قد استجاب فعلاً لنداء رسول الله (ص) في تلك المأدبة الكريمة.

وهنا كسر الاسلام بشخصي رسول الله (ص) وعلي (ع) أول حواجز العشيرة في العصر الجاهلي، الا وهو حاجز الطاعة العمياء لسلطة العشيرة. فاصبح علي (ع)، منذ ذلك اليوم، سيد القوم بعد رسول الله (ص) وهو لا يزال احدهم سنّاً وارمضهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً. ومنذ ذلك اليوم، اصبحت الطاعة للدين ومن يمثله لا لسادة العشيرة ولا لزعمائها.

(<sup>49</sup>) «الكامل في التاريخ» - ابن الاثير ج 2 ص 60 - 61.

وهذا المعنى وضع فكرة العشيرة في الموضوع الصحيح. فرابطة الدم والرحم لا غبار عليها، بل ان الدين يؤكدها ويشدد على اخلاقيتها، ولكن لاطاعة ينبغي ان تكون لمن له الشرف والرفعة والمنزلة في الدين. فلا اثر ديني لزعيم العشيرة اذا كان بعيداً عن الدين. اما اذا كان الزعيم متديناً وشريفاً في دينه، فانه سوف يجمع بين حسنات الدين والدنيا، وهو ما جمعه ابو طالب. ولذلك فقد كان نداً قوياً لجاهلية قريش وعنجهيتها.

ان دعوة رسول الله (ص) لعشيرته للايمان بالله سبحانه و برسالة التوحيد كانت \_وبعنوان ثانوي \_ من اجل تغيير موقع العشيرة من الواقع العرفي اللاديني الى واقع الضمير الديني. فلا بد انه (ص) وضعها راسخة في ضمائرهم بأنه لم يهملهم ولم يخرج عن اعرافهم التي بنوا حياتهم عليها. ولكنه، في الوقت نفسه، عرض رسالته السماوية الجديدة وضرب اعرافهم الجاهلية اللادينية عرض الحائط. فالشريف في الدين \_ حتى لو كان صغيراً في العمر كعلي (ع) \_ لا بد ان يُطاع من قبل عشيرته حتى من قبل سيدها ابي طالب، وغيره من وجهاء العشيرة واكابرها.

## الفصل السابع

### مرحلة الفدى

علي (ع): اول مراحل الفدى \* الدلالات العلمية للنصوص: 1- الفداء: الدليل اللغوي. 2- الاحتجاج على الفقهاء: استدلال مدرسة المأمون. 3- فلسفة الايثار عند علي (ع): أ- مقدمة حول حب الذات والطبيعة الانسانية. أولاً: حب النفس. ثانياً: حب الغير. ثالثاً: حب الله. ب- الايثار: المقتضيات. ج- الايثار: النطاق الفلسفي: أولاً: نكران الرغبة البشرية في البقاء. ثانياً: نكران المصالح الذاتية. ثالثاً: الايثار ودوافعه الاخلاقية.

## علي (ع): أول مراحل الفدى

كان علي (ع) مستعداً للذود عن رسول الله (ص) وافتداء نفسه الزكية رخيصةً من اجل المصطفى (ص) في كل وقت، وكان علي (ع) على درجة من التضحية والايثار في جميع مواطن ملازمته لخاتم الانبياء (ص). ولكن المصادر التاريخية تذكر واقعتين لهما خصوصية عظيمة فدى بهما علي (ع) نفسه من أجل رسول الله (ص).

**الاولى:** المبيت في الشعب مكان رسول الله (ص). فقد «كان ابو طالب كثيراً ما يخاف على رسول الله (ص) البيات اذا عرف مضجعه وكان يقيمه ليلاً من منامه ويضع ابنه علياً مكانه...»<sup>50</sup>. فكان علي (ع) يقدم نفسه للموت، فداءً لرسول الله (ص).

**الثانية:** المبيت ليلة الهجرة. والرواية مشهورة عند الفريقين، فقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ...) <sup>51</sup> قال: «تشاورت قريش ليلاً بمكة فقال بعضهم: اذا اصبح فاثبتوه بالوثاق — يريدون النبي (ص) — وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل اخرجوه، فاطلع الله عز وجل نبيه على ذلك. فبات علي (ع) على فراش النبي (ص) تلك الليلة، وخرج النبي (ص) حتى لحق بالغار. وبات المشركون يحرسون علياً (ع) يحسبونه النبي (ص) فلما اصبحوا ثاروا اليه، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم. فقالوا: اين صاحبك هذا؟ قال: لا ادري. فاقتصوا اثره. فلما بلغوا الجبل خلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا علياً عليه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسيج العنكبوت على بابه، فمكث (ص) فيه ثلاث ليال»<sup>52</sup>.

قال الشبلنجي في «نور الابصار» عارضاً فضائل أمير المؤمنين (ع): «فمن شجاعته نومه على فراش رسول الله (ص) لما أمره بذلك وقد اجتمعت قريش على قتل النبي (ص) ولم يكثرث علي (ع) رضي الله عنه بهم، قال بعض أصحاب الحديث: اوحى الله تعالى الى جبرئيل وميكائيل (عليهما السلام) ان انزلا الى علي واحرساه في هذه الليلة الى الصباح فنزلا اليه وهما يقولان: بخ بخ من مثلك يا علي؟ قد باهى الله بك ملائكته. واورد الغزالي في كتابه (احياء العلوم) ان ليلة [مبيت] علي (ع) رضي الله عنه على فراش رسول الله (ص) أوحى الله تعالى الى جبرئيل وميكائيل: اني آخيت بينكما وجعلت عمر احدكما اطول من عمر الآخر، فأبكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختر كلاهما الحياة وأحباها، فاوحى الله اليهما: أفلا كنتما مثل علي بن ابي

<sup>50</sup> «شرح نهج البلاغة» ج 14 ص 64.

<sup>51</sup> سورة الانفال: آية 30.

<sup>52</sup> «مسند احمد» باسناده عن ابن عباس ج 1 348. و«أسد الغابة» ابن الاثير ج 4 ص 25. و«الفصول المهمة» - ابن الصباغ ص 33.

طالب آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة. اهبطا الارض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله ينادي ويقول: بَخَّ بَخَّ من مثلك يا ابن ابي طالب؟ يباهي الله بك الملائكة فانزل الله عزوجل: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)<sup>53</sup>. وفي تلك الليلة انشأ علي (رضي الله عنه):

وقيتُ نفسي خير من وطأ الحصى      واكرم خلق طاف بالبيت والحجر  
وبتّ اراعي منهم ما يسوعي      وقد صبرت نفسي على القتل والاسر  
وبات رسول الله في الغار آمناً      وما زال في حفظ الاله وفي الستر<sup>54</sup>

وكان مما نزل من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا اجمعوا عليه: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)<sup>55</sup>، (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)<sup>56</sup>، وفي علي (ع) نزل: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ...) <sup>57</sup>.

### الدلالات العلمية للنصوص

لابد هنا من فهم مقتضب لمعاني الفداء والتضحية والايثار، وادراك دلالاتها التاريخية والشرعية والفلسفية. وبدون ذلك، فاننا قد لا نستطيع تقييم حجم تلك الفضيلة التي رافقت علياً (ع) خلال مراحل حياته وحتى استشهاده.

### 1- الفداء: الدليل اللغوي

معنى الفداء والفدى. قال الجوهري: «الفداء اذا كسر اول يمد ويقصر، واذا فتح فهو مقصور. يُقال: قُم فدى لك ابي... وفداهُ بنفسه، وفداهُ تَفْدِيَةً اذا قال له: جُعِلت فداءك»<sup>58</sup>. فيكون المراد بالفداء: التعظيم والاكبار، لان الانسان لا يفدي الا من يعظمه فيبدل نفسه له<sup>59</sup>.

<sup>53</sup> (سورة البقرة: آية 207).

<sup>54</sup> («نور الابصار» - الشبلنجي ص 100).

<sup>55</sup> (سورة الانفال: آية 30).

<sup>56</sup> (سورة الطور: آية 30 - 31).

<sup>57</sup> (سورة البقرة: آية 207).

<sup>58</sup> («الصحاح» ج 4 ص 2453).

<sup>59</sup> («النهاية» - ابن الاثير ج 3 ص 422).

وقال الراغب الاصفهاني: «حفظ الانسان عن النائبة بما يبذله عنه... يقال فديته بمال وفديته بنفسه وفاديته بكذا»<sup>60</sup> وهو اقامة شيء في دفع المكروه<sup>61</sup>. وكان امير المؤمنين (ع) يعرف مقام النبي (ص) فكان يفديه بنفسه في المبيت. وتعبير آخر، فان فدى علي (ع) نفسه لرسول الله (ص) كان بدافع التعظيم والاكبار الذي كان يكنه له (ص) ورسالته السماوية.

## 2- الاحتجاج على الفقهاء: استدلال مدرسة المأمون

استدل علماء السنة على فضل ابي بكر بن ابي قحافة بمصاحبه النبي (ص) في الهجرة؛ نستفيد ذلك في الاحتجاج الذي جرى بين المأمون العباسي والفقهاء من بقية الذاهب في عصره. ولكن الخليفة العباسي يحتاج هنا احد فقهاء المذاهب بنوم علي (ع) على فراش النبي (ص) ليلة الهجرة كدليل على افضلية الامام (ع) على من سواه.

قال اسحاق بن إبراهيم: وان لابي بكر فضلاً.

قال الخليفة العباسي: أجل. لولا ان له فضلاً لما قيل: ان علياً افضل منه، فما فضله الذي قصدت اليه

الساعة؟

قلت: قول الله عزّ وجلّ: (... ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...) <sup>62</sup>

فَنَسَبْتُهُ إِلَى صَحْبَتِهِ.

قال: يا اسحاق، اما ابي لا احملك على الوعر من طريقك، ابي وجدت الله تعالى نسب الى صحبته من رضيه ورضي عنه كافراً وهو قوله: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا . لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) <sup>63</sup>.

قلت: ان ذلك صاحبٌ كان كافراً، و ابو بكر مؤمن.

قال: فاذا جاز ان ينسب الى صحبة من رضيه كافراً جاز ان ينسب الى صحبة نبيه مؤمناً، وليس بأفضل

المؤمنين ولا الثاني ولا الثالث.

قلت: يا امير المؤمنين ان قدر الآية عظيم ان الله يقول: (ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا

تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...).

<sup>60</sup> «المفردات في غريب القرآن» - الراغب الاصفهاني ص 374.

<sup>61</sup> «تاج العروس» ج 1 ص 278.

<sup>62</sup> سورة التوبة: آية 40.

<sup>63</sup> سورة الكهف: آية 37 - 38.

قال: يا اسحاق تأبى الآن الا ان اخرجك الى الاستقصاء عليك، اخبرني عن حزن ابي بكر، أكان رضىً ام سخطاً؟

قلت: ان ابا بكر انما حزن من اجل رسول الله (ص) خوفاً عليه، وغماً ان يصل الى رسول الله شيء من المكروه.

قال: ليس هذا جوابي، انما كان جوابي ان تقول: رضى ام سخط؟  
قلت: بل رضى الله.

قال: فكأن الله جل ذكره بعث الينا رسولاً ينهى عن رضى الله عزّ وجلّ وعن طاعته.  
قلت: أعود بالله.

قال: او ليس قد زعمت ان حزن ابي بكر رضىً لله؟  
قلت: بلى.

قال: او لم تجد أن القرآن يشهد ان رسول الله (ص) قال له: (... لا تحزن... ) هنيئاً له عن الحزن.  
قلت: أعود بالله.

قال: يا اسحاق، ان مذهبي الرفق بك لعلّ الله يردك الى الحق ويعدل بك عن الباطل، لكثرة ما تستعيز به. وحدثني عن قول الله: (... فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ...) <sup>64</sup> من عنى بذلك: رسول الله ام ابا بكر؟  
قلت: بل رسول الله.

قال: صدقت. فحدثني عن قول الله عزّ وجلّ: (... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ...) <sup>65</sup> إلى قوله: (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ...) <sup>66</sup> اتعلم من المؤمنين الذين اراد الله في هذا الموضع؟  
قلت: لا ادري يا أمير المؤمنين.

قال: الناس جميعاً انهزموا يوم حنين، فلم يبق مع رسول الله (ص) الا سبعة نفر من بني هاشم: علي يضرب بسيفه بين يدي رسول الله (ص)، والعباس آخذ بلجام بغلة رسول الله، والخمسة محذقون به خوفاً من ان يناله من جراح القوم شيء، حتى اعطى الله لرسوله الظفر، فالمؤمنون في هذا الموضع علي (ع) خاصة، ثم من حضره من بني هاشم. قال: فمن افضل: من كان مع رسول الله (ص) في ذلك الوقت، ام من انهزم عنه ولم يره الله موضعاً لينزلها عليه؟

<sup>64</sup> سورة التوبة: آية 40.

<sup>65</sup> سورة التوبة: آية 25.

<sup>66</sup> سورة التوبة: آية 26.

قلت: بل ما انزلت عليه السكينة؟

قال: يا اسحاق من افضل: من كان معه في الغار، ام من نام على فراشه ووقاه بنفسه حتى تم لرسول الله (ص) ما اراد من الهجرة؟ ان الله تبارك وتعالى امر رسوله ان يأمر علياً بالنوم على فراشه وان يقي رسول الله (ص) بنفسه، فأمره رسول الله (ص) بذلك فبكى علي (رضي الله عنه) فقال له رسول الله (ص): ما يبكيك يا علي، أجزعاً من الموت؟ قال: لا، والذي بعثك بالحق يا رسول الله، ولكن خوفاً عليك. أفتسلم يا رسول الله؟ قال: نعم. قال: سمعاً وطاعة وطيبة نفسي بالفداء لك يا رسول الله. ثم أتى مضجعه واضطجع وتسحّى بثوبه. وجاء المشركون من قريش فحفّوا به، لا يشكون انه رسول الله (ص). وقد اجمعوا ان يضربه من كل بطن من بطون قريش رجل ضربة بالسيف، لئلا يطلب الهاشميون من البطون بطناً بدمه. وعليّ يسمع ما القوم فيه من تلف نفسه ولم يدعه ذلك الى الجزع كما جزع صاحبه في الغار، ولم يزل عليّ صابراً محتسباً فبعث الله ملائكته فمنعته من مشركي قريش حتى أصبح، فلما أصبح قام، فنظر القوم اليه فقالوا: اين محمد؟ قال: وما علمي بمحمد اين هو؟ قالوا: فلا نراك الا كنت مغروراً بنفسك منذ ليلتنا. فلم يزل علي افضل ما بدأ به يزيد ولا ينقص حتى قبضه الله اليه»<sup>67</sup>.

#### الاستنتاج:

هذه الرواية التاريخية! ارادت اثبات اربعة امور، كانت مدار حديث الساعة في زمن المأمون، وهي:

- 1 \_ ان الصحبة يمكن ان تُنسب للمؤمن ولغير المؤمن، فلا يمكن الاستدلال بها على الافضلية.
- 2 \_ ان الذي صحب رسول الله (ص) في الغار قد انهزم في حُنين من المعركة.
- 3 \_ ان حُزن ابي بكر لم يكن في محله، لان رسول الله (ص) نهاه عن ذلك.
- 4 \_ ان موقف علي (ع) يوم حُنين دفاعاً عن رسول الله (ص) وحمايته له وللرسالة، حيث انهزم من انهزم، هو الذي يجعله (ع) افضل من بقية المسلمين. وكذلك موقفه (ع) ليلة الهجرة ومبيته في فراش رسول الله (ص)، هو الذي حدد افضليته.

ولكن الذي يضعف هذا العرض من جانب المأمون، هو قضية بكاء علي (ع) ليلة الهجرة خوفاً على رسول الله (ص). وهو لا يختلف كثيراً عن حزن ابي بكر خوفاً عليه (ص) وغماً ان يصل اليه (ص) شيء مكروه. فكلاهما يعبران عن عدم يقين بالله سبحانه. وقد لمسنا في البحوث السابقة ان علياً (ع) كان على اعلى درجات اليقين. فكيف تقبل ذلك التناقض؟

(<sup>67</sup>) «العقد الفريد» ج 5 ص 97.

وبالاجمال، فان احتجاج المأمون على افضلية علي (ع) ومبيته في فراش رسول الله (ص) احتجاجٌ سليم وقوي، عدا ما أقحم من قضية بُكاء علي (ع). فاننا، وبلحاظ المنهج العلمي، نرفضها قطعاً. لانها متناقضة مع الخط الفكري والايثاري للامام (ع).

### 3- فلسفة الايثار عند علي (ع):

لماذا يجب انسانٌ كعلي (ع) ان يقدم مصلحة رسول الله (ص) على مصلحته الشخصية؟ وكيف يستطيع علي (ع) ان يتغلب على عاطفته التي ينبغي ان تأمره بالمحافظة على نفسه اولاً؟ وما هو الخط الفاصل بين الايثار والانانية؟ أو بتعبير ثانٍ: ما هو الخط الفاصل بين حب الغير وحب النفس؟ ان الاجابة على تلك الاسئلة تتطلب دراسة عقلية ودينية ونفسية للطبيعة الانسانية.

#### أ- مقدمة حول حبّ الذات والطبيعة الانسانية:

لاشك ان الطبيعة الانسانية تحبّ الذات حباً مفرطاً، والى ذلك ذهب مذهب «الأنوية» الفلسفي القائل بان مصالح الفرد الذاتية هي اساس الانسان وسلوكه، وحب الذات هو محور اهداف الحياة. ولكن القرآن الكريم حطم تلك النظرية وقال بان للانسان طبيعة ثلاثية تتضمن: حب النفس او الذات، وحب الغير، وحب الله عزّ وجلّ.

#### أولاً - حب النفس:

يقول تعالى: (لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب...) <sup>68</sup>، أي لا تحسبن الذين انعم الله عليهم بالمال والدنيا بالنجاة من العذاب ولازمه حب النفس. ويخاطبهم ايضاً: (بل تؤثرون الحياة الدنيا) <sup>69</sup> وهو خطاب الى عامة الناس، سيق للعتاب، على ما يدعوا اليه طبعهم الانساني من التعلّق التام بالدنيا والانشغال بتعميرها. ويعتب عليهم في مورد ثالث: (وتحبّون المال حباً جماً) <sup>70</sup> وفيه تقرّيع شديد لهم لحبهم المال حباً شديداً وعدم اطعامهم للمساكين. وحب المال يعكس مقدار حب النفس.

<sup>68</sup> (سورة آل عمران: آية 188).

<sup>69</sup> (سورة الاعلى: آية 16).

<sup>70</sup> (سورة الفجر: آية 20).

ويشير الى طائفة من الناس يجون انفسهم حباً عظيماً: (... وطائفة قد أهتمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية...) <sup>71</sup>، وهؤلاء ليس لهم هم الا حفظ حياتهم الدنيا وحذرهم الشديد في عدم الوقوع في فخ القتل في الحرب. فهم يتظاهرون بالتدين حتى لا تُقطع رقابهم. فالدين عندهم عامل غير مغلوب، ولذلك فاهم لا يريدون التظاهر بالتدين الا من اجل الانتفاع بالملذات التي يجلبها الدين لهم في الحياة الدنيا. وتلك مصاديق من حب الذات حباً مفرطاً الى درجة التعلق بالباطل من اجل ارضائها.

### ثانياً- حب الغير:

وهنا ينشطر حب الغير الى احد قسمين: اما حب الباطل، واما حب الحق. فمن حب الباطل والشر: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ...) <sup>72</sup> وهو حب الاصنام من دون الله سبحانه. (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) <sup>73</sup>، قيل ان الخير هنا معناه المال. ولكن لا يبعد ان يكون المراد بالخير مطلقه، فحب الخير فطري عند الانسان. فيرى عرض الحياة الدنيا وزينتها خيراً فينجذب اليها وينسيه ذلك ذكر ربه. ومن حب الخير والحق: (... وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...) <sup>74</sup>. وهؤلاء هم الانصار الذين وصفهم الله بأحسن وصف، لانهم كانوا يقدمون غيرهم على انفسهم حتى لو كان بهم فقر وحاجة. وهو وصف رائع لحب الخير.

### ثالثاً- حب الله:

يقول تعالى: (... يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...) <sup>75</sup>، وهذه الآية ادانت بعضاً من الناس من الذين يحبون آلهتهم من الاوثان ويعبدونها. وأشارت الى ان المؤمنين اشد حباً لله. ذلك: انهم يجيونه عن علم ودراية بانه المنعم ابتداءً، وانهم يخلصون العبادة والتسبيح له، وانهم يعلمون ان له الصفات العليا والاسماء الحسنى وانه الحكيم الخبير. وفي آية أخرى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) <sup>76</sup>، فالمراد بحبه في هذه الآية، اشتياق النفس للطعام لشدة حاجتها اليه.

<sup>71</sup> (سورة آل عمران: آية 154).

<sup>72</sup> (سورة البقرة: آية 165).

<sup>73</sup> (سورة العاديات: آية 8).

<sup>74</sup> (سورة الحشر: آية 9).

<sup>75</sup> (سورة البقرة: آية 165).

<sup>76</sup> (سورة الانسان (الدهر): آية 8).

وهنا حدد الاسلام مقدار ما يُدين به الفرد لنفسه ومقدار ما يُدين به للآخرين ولخالقه عزّ وجلّ. وشدد على الايثار كقيمة اخلاقية ينبغي ان يكتسبها المؤمن في حياته العامة والخاصة.

لقد كانت الرسالة السماوية في البداية بحاجة الى جهد جماعي متضافر من اجل تبليغ فحواها واهدافها الى البشرية كي تؤمن بها وتدافع عنها. وتركيبية دينية تضمّ افراداً على رأسهم رسول الله (ص) وعلي بن ابي طالب (ع) ونخبة طيبة من المواليين لرسول الله (ص) واهل البيت (ع) لابد ان تنتصر على اعدائها. ذلك لان التضافر والتآزر الذي كان يشدّ تلك التركيبة اوصلها الى درجات عليا من الايثار وتفضيل الغير على الذات. فقد كان علي (ع) مثال الفداء والتضحية والايثار من اجل رسول الله (ص). والى ذلك يفسر مكوثه في مكة ليلة هجرة رسول الله (ص) ومببته في فراشه، وهو يعلم تماماً المخاطر التي كانت تنتظره تلك الليلة والليالي القادمة التي سبقت هجرته (ع) مع الفواطم الى المدينة.

#### ب - الايثار: المقتضيات

ان فداء علي (ع) بنفسه لرسول الله (ص) كان يكشف عن انه (ع) قد وهب نفسه للدعوة الاسلامية وقائدها (ص). فقد كان (ع) لا يكثر لذاته أوقعت على الموت أو وقع الموت عليها.

وهنا اظهر الامام (ع) بايثاره ذلك ثلاث خصال على درجة كبيرة من الاهمية، وهي:

**الاولى:** الاقرار بنبوة محمد (ص) والتضحية من اجلها من اجل الحفاظ على قائدها (ص).

**الثانية:** انه كان الدافع الحقيقي عن رسول الله (ص)، وأقصى ما يفعله المؤثر ان يقدم للمؤثر له نفسه وجسده.

**الثالثة:** ان طبيعة علي (ع) كانت ترى الموت والحياة في الله على وتيرة واحدة وحد سواء. فاذا كان في الموت رضىً لله سبحانه فمرحياً بالموت. واذا كان في الحياة \_ بخشونها وآلامها \_ رضىً لله عزّ وجلّ فمرحياً بها وسيلة من وسائل نشر الدين. والى ذلك يشير (ع) ضمن كلام له لما قبض رسول الله (ص): «... والله لابن ابي طالب انسُ بالموت من الطفل بندي امه...»<sup>77</sup>.

فالايثار عند علي (ع) لم يكن حباً للذات، بل كان حباً لله سبحانه وذوباناً في القيم العليا والصفات الاسمى.

(77) «فتح البلاغة» - طبعة حجرية. ص 28.

ان توضحية علي (ع) في المبيت ليلة الهجرة انقذت النبي (ص) من موت محقق على يدي ازام قريش. فقد قرأنا قبل لحظات ان رسول الله (ص) عندما أمره بالمبيت، قال (ع): سمعاً وطاعة وطيبة نفسي بالفداء لك يا رسول الله<sup>78</sup>. وهذا يعني ان الفداء كان من اجل سلامة النبي (ص) وحفظ حياته الشريفة.

وتلك اللغة المملوءة حباً وأدباً وتوضيحاً وإيثاراً تعكس طبيعة علي (ع) الانسانية الدينية التي لا تمتلك الا دوافع الايثار والتوضحية، والفهم الكامل للدين، والادراك الشامل لمعاني الحياة والموت والبعث. فلا ريب ان يكون تحلي الانسان عن غريزته في البقاء وحب الحياة من اجل عقيدته، ممثلاً لاقصى درجات الايثار.

ومن هنا نفهم ان الايثار عند المعصوم (ع) قاعدة أخلاقية من قواعد شخصيته الرسالية. فالمعصوم (ع) لا يصنع الايثار من اجل قناعة ذاتية او مصلحة شخصية. بل انه صمّم شخصيته الدينية على اساس ان تكون المثل الاعلى في الدين. ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى المعصومين (ع) في محكم كتابه بصفات كمالية مثل: (... وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)<sup>79</sup>، (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)<sup>80</sup>، (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)<sup>81</sup> وغيرها من الصفات الكمالية المحمودة. والطبيعة الانسانية لانسان مثل علي بن ابي طالب (ع) تكشف عن ان دوافعه جميعاً تخضع لطاعة الله سبحانه واحكامه الدينية التي هي احكام اخلاقية بالدرجة الاولى. فهو (ع) لا يرى لنفسه مصلحة ذاتية غير مصلحة الدين والحفاظ على افكاره وشخصياته من الدرجة الاولى كشخصية رسول الله (ص). وبمعنى آخر ان مصلحة علي (ع) الذاتية ذابت تماماً في مصلحة الدين وملاكاته واهدافه العليا في الحياة الانسانية.

والفرق هنا بين علي (ع) وغيره من الذين دخلوا الاسلام ظاهراً هو ان اولئك كانوا يرون ان مصلتهم الذاتية ينبغي ان تتقدم في اغلب الاحيان على الآخرين، ولذلك تراهم يؤخرون الاجابة الى الاسلام تارةً، ويفرون من المعارك تارةً أخرى، ولا يتقدمون عندما يناديهم رسول الله (ص) ثالثة، ويشبعون ويتركون الفقراء يئنون من الجوع رابعة. وهنا انكسرت عندهم قواعد الايثار، بشعور او دون شعور. فالفرد \_ في الحالات الغالبة \_ ينظر لمصلحته الذاتية اولاً قبل ان يتقدم الآخرين. والايثار حالة استثنائية عند الناس.

ولكننا لو تأملنا في حياة علي (ع) لرأينا ان الايثار هي الحالة الغالبة في حياته التي ختمها بالشهادة في سبيل الله تعالى. فنظرة معمّقة لفلسفته في التوضحية ترى ان عملية الايثار بالنسبة له (ع) لا تعني خسارة للنفس

(<sup>78</sup>) «العقد الفريد» ج 5 ص 97.

(<sup>79</sup>) سورة الحشر: آية 9.

(<sup>80</sup>) سورة الانسان: آية 8 - 9.

(<sup>81</sup>) سورة البقرة: آية 207.

والمال، او فقدان للملكية بعنوانها العام. بل ان كل ما يملكه (ع) هو ملك الله سبحانه وادوات للدين وللرسالة السماوية، فاثاره يعني انه امين على نفسه يحاول ارجاع الامانة الى صاحبها عزّ وجلّ وارجاع ما بيده الى الناس.

فكانت مشاعر علي (ع) تجاه رسول الله (ص) في التضحية والايثار تشبه مشاعر «الاندماج» بين التلميذ المخلص واستاذه، فهو (ع) خليفته (ص) ووزيره وحامل لوائه الا انه لا نبي بعده. فتلك المشاعر تعكس حجم الانعكاس الانسجام الفكري والروحي بين النبوة والامامة. فليس هناك مسائل فردية في حب الذات، أو الخوف من الموت، او الحفاظ على المصالح الشخصية بقدر ما هو اندماج واندكك في الرسالة وقائدها واهدافها. وذلك الاندماج يفرز شعوراً بالسعادة في التضحية من اجل رسول الله (ص). والرغبة في التضحية تنبع من الرغبة المطلقة في التعلق بالله تعالى وبالوجود الكامن وراء الغيب.

### ج - الايثار: النطاق الفلسفي

وهنا يمكن بحث ثلاث نقاط فلسفة في فلسفة الايثار عند علي (ع) تكشف عن: عمق شخصية الامام، وطبيعة ارتباطه بالدين، وخطورة الظرف الذي كان يتم فيه الايثار، وعمق الانسجام الفكري والعقائدي بينه (ع) وبين خاتم الانبياء (ص).

### أولاً: نكران الرغبة البشرية في البقاء:

عندما يريد الانسان شيئاً، كالبقاء على قيد الحياة مثلاً، فان مجرد البقاء قد لا يمنحه لذة ولا يقدم له سعادة مرجوة. ولكن تحقيق ما يريده من البقاء على قيد الحياة قد يُشبع عنده رغبة من رغبته النفسية والجسدية. وعندما لا يُشبع الانسان رغبته في الحياة والوجود، فانه سيبقى باحثاً عن اشباعها. فليس من الضروري ان يرتبط التشبث بالبقاء على قيد الحياة باللذة الجسدية. فقد يفضل الانسان الفقير او المعدّب الحياة مع الفاقة والحاجة، على الموت. وبذلك فان الرغبة في البقاء على قيد الحياة ليست مرتبطة بمقدار اللذة التي يجنيها من بقائه حياً. بل ان تلك الرغبة شعور غريزي لا يمكن الا للقلّة او النخبة الافلات منه. وهذا الشعور الغريزي في التشبث بالحياة الدنيا له منشأ مرتبط برغبة الانسان الغريزية نحو البقاء على قيد الحياة.

الا ان ذلك لم نلحظه في حياة امير المؤمنين (ع)، فقد كانت رغبته في الحياة الدنيا صفرًا. ذلك ان حياته كانت وفقاً للدين، لا رغبة في الحياة والتمتع بلذاتها ومتعتها. ويتجلى هذا المعنى عند التأمل في تضحياته (ع) واستعداده الكامل نحو حماية النبي (ص) على فراشه، او في القتال في ساحات الوغى، او

الاقتحام الجريء في المعارك الطاحنة. فرغباته الشخصية (ع) كانت متطابقة مع آمال الدين في التضحية والشهادة من اجل نشر العدالة السماوية على الارض.

### ثانياً: نكران المصالح الذاتية:

لو تسائل متسائل: هل ان تحقيق العدالة مع المحكومين انفع للحاكم من ظلمه لهم؟ لكان جوابنا هو: ان الجواب يعتمد على طبيعة الحاكم الذي يُوجّه اليه السؤال، فلو كان عادلاً لآمن بان تحقيق العدالة بين الناس انفع له كحاكم. ولو كان ظالماً لآمن بان ظلم الآخرين انفع له كحاكم. فهنا اختلف الجواب لان المصالح الذاتية اختلفت من حاكم الآخر.

ولا شك ان المصلحة الذاتية تحدد الدافع نحو العمل في ظروف معينة. فعندما يأكل الانسان طعاماً طيباً في بلد يفيض بالخيرات والطيبات، فانه يتصرف بوحى مصطلحه التكوينية، ولا ضير في ذلك ما دام الخير كثيراً. ولكنه لو أكل نفس نوعية ذلك الطعام في وقت مجاعة يتضور فيها ارحامه وجيرانه جوعاً وألماً، لعدّ ذلك اهتماماً بمصلحته الذاتية وتكريساً لفكرة الانانية.

ولو كان رسول الله (ص) أمر علياً (ع) بالمبيت على فراشه وهو بالمدينة وقت سلم وامان لما انطوى ذلك العمل على شيء مهم، لانه لا يبرز انكاراً لمصلحة ذاتية. ولكن الامر حصل في ظرف خطير، حيث تجمع ممثلو بطون العرب ليقتلوا رسول الله (ص). فنام علي (ع) في فراش النبي (ص) تحت ظل السيوف، لا يدري أيسفك دمّه وهو على فراش النبي (ص). هنا تجلّى عند علي (ع) انكار الذات والترفع عن المصالح الذاتية بأجلى صورها.

فنفهم من تلك الافكار ان المصلحة الذاتية مرتبطة بالظروف اكثر مما هي مرتبطة بمقدار العمل الذي يقوم به المضحّي. بمعنى ان ما ميز ايثار علي (ع) ليلة الهجرة هو ان الظرف الذي كان يمرُّ به رسول الله (ص) والرسالة التي كان يحملها كان صعباً للغاية، وكانت التضحية جسيمة جداً، ولذلك كان انكار الذات او الترفع عن المصلحة الذاتية عند علي (ع) في ذلك الموقف ضخماً وعملاقاً.

### ثالثاً: الايثار ودوافعه الاخلاقية:

ان الايثار \_ بمعناه الحقيقي \_ لا يتم ما لم يكن هناك انسجام فكري وعقائدي وروحي بين المؤثر والمؤثر له. ولو لم يكن هناك انسجام فكري لبرزت المصلحة الذاتية في المقدمة، وانتفى الايثار. ولا شك ان الانسجام الفكري والعقائدي والروحي بين رسول الله (ص) وعلي (ع) كان تاماً. فاليقين بالرسالة، والقطع بالنبوة،

والتقّة بنصر الله سبحانه، جعلت من قضية ذلك الايثار امراً حتمياً. ودوافع محمد (ص) وعلي (ع) في نشر الاسلام مندجّة ومندكة، لا يفصلها شيء. وما كان يميزها ان علياً (ع) كان ينقاد لرسول الله (ص) وينفذ اوامره. فكان ايثار علي (ع) في المواقف الصعبة تلك منحصرأً في انقاذ حياة رسول الله (ص). وفي ضوء هذا المعنى نفسر رواية الشبلنجي في «نور الابصار»<sup>82</sup> في قصة المؤاخاة بين جبرئيل وميكائيل ومباهاة الله سبحانه الملائكة بتضحية علي (ع) من اجل رسول الله (ص). فذلك اليثار ودوافعه دلّ على انسجام فكري تام بين المؤثر والمؤثر له.

---

(<sup>82</sup>) «نور الابصار» ص 100.

## الفصل الثامن

### الهجرة الى المدينة

طبيعة الهجرة الى المدينة ومقتضياتها \* الهجرة في القرآن الكريم: آيات الهجرة: 1- الطائفة الاولى: في صفة المهاجرين. 2- الطائفة الثانية: نفي ولاية غير المهاجرين وادانتهم. 3- الطائفة الثالث: الهجرة الى الله ورسوله. 4- الطائفة الرابعة: مساعدة المهاجرين في سبيل الله \* الهجرة: الابعاد الدينية والاجتماعية: 1- الهجرة الى المدينة: الهجرة الحقيقية. 2- التكيف بعد الهجرة \* اخلاقية رد الامانات الى الناس.

## طبيعة الهجرة الى المدينة ومقتضياتها

هاجر رسول الله (ص) من مكة الى المدينة غرة ربيع الاول من السنة الثالثة عشرة من المبعث، وفي تلك الليلة بات امير المؤمنين (ع) على فراش النبي (ص)، كما اشرنا الى ذلك آنفاً. وكان علي (ع) « يجهز النبي (ص) حين كان بالغار، ويأتيه بالطعام [بعد ان] استأجر له ثلاث رواحل، له (ص) ولايي بكر ودليلهم عبد الله بن أرقط، وخلفه النبي (ص)... وأمره أن يؤدي عنه امانته ووصايا من كان يوصي اليه، وما كان يؤتمن عليه من مال [فانما كان يسمى الامين]، فأدى امانته كلها... وأمر النبي (ص) علياً (ع) ان يلحقه بالمدينة، فخرج علي (ع) في طلبه بعد ما أخرج اليه فكان يمشي من الليل، ويكمن بالنهار حتى قدم المدينة. فلما بلغ النبي (ص) قدومه قال: ادعوا لي علياً، فقالوا: انه لا يقدر ان يمشي فأتاه النبي (ص) فلما رآه النبي (ص) اعتنقه وبكى رحمة له مما رأى بقدميه من الورم وكانتا تقطران دماً...»<sup>83</sup>. ثم « دعا له بالعافية ومسح رجليه فلم يشتكهما بعد ذلك»<sup>84</sup>.

«وروى الثعلبي في تفسيره قال: لما اراد النبي الهجرة خلف علياً لقضاء ديونه وردّ الودائع التي كانت عنده»<sup>85</sup>. وعلق السيد ابن طاووس في طرائفه: «ثم العجب انه ما كفاه ذلك كله حتى يقيم ثلاثة ايام بمكة بعد النبي (ص) يردّ الودائع، ويقضي الديون ويجهز عياله ويسدّ مسده، ويحمل حرمة الى المدينة بقلب راسخ ورأي شامخ»<sup>86</sup>. وهاجر (ع) الى يثرب وله ثلاث وعشرون سنة، وللنبي (ص) ثلاث وخمسون، ولغاطمة (ع) ثمان سنين.

واول ما نزل النبي (ص) حين هاجر من مكة الى المدينة في قباء. واول مسجد بُني في الاسلام وهو مسجد قباء يبعد عن المدينة، بالحساب المتري، ثلاث كيلو مترات ونصف. وبقي رسول الله (ص) في قبا مدة عشرين ليلة ينتظر قدوم امير المؤمنين (ع). ومدة بقائه في قبا كان (ص) يصلي قصراً.

## الهجرة: في القرآن الكريم

الهِجْرُ فِي اللُّغَةِ: ضد الوصل. يقال هَجَرَ هَجْرًا وَهَجْرَانًا. والاسم: الهِجْرَةُ. والهَجْرَتَانِ: هجرة الى الحبشة، وهجرة الى المدينة. والمهاجرة من أرض الى أرض: ترك الوطن.<sup>87</sup>

<sup>83</sup> (تأريخ مدينة دمشق) ترجمة الامام علي بن ابي طالب (ع) - ابن عساکر ج 1 ص 138، الحديث 189.

<sup>84</sup> (اعلام الوری) - الطبرسي ص 190.

<sup>85</sup> نقلها الخلسي في «بحار الانوار» ج 19 ص 86 الطبعة الحديثة، ج 6 ص 422 الطبعة القديمة.

<sup>86</sup> الطرائف - ابن طاووس ج 1 ص 34.

<sup>87</sup> (الصحاح). مادة (هجر) ج 2 ص 851.

ومع ان القرآن الكريم تعرض الى موضوع الهجرة في مواطن عديدة، الا انه لم يعرفها، بل ترك تحديدها تعرفها الى العرف الاجتماعي. فما يعرفه العرف من الهجرة ينطبق على منطوق الآية الشريفة، كما هو الحال في قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...) <sup>88</sup>، فترك تعريف معنى العقد الى العرف الاجتماعي. وكذلك ترك تحديد معنى الهجرة الى العرف.

والملاحظ ان الآيات القرآنية التي تناولت الهجرة انما قصدت الهجرة الى المدينة، ولم تشر الى هجرة الحبشة. ولذلك فاننا نميل الى اعتبار اطلاق لفظ «الهجرة» على «الخروج الى الحبشة» اطلاقاً مجازياً. والا فلم تكن تلك هجرة دائمية. بل كانت هجرة مؤقتة باذن من الله ورسوله من اجل الامن والراحة من أذى مشركي مكة وعذابهم وفتنتهم. ولذلك يطلق على الهجرة الاولى الى ارض الحبشة الخروج الى الحبشة. ولا يطلق على الهجرة الثانية الى المدينة الخروج الى المدينة.

وقد خرج جعفر بن ابي طالب (رض) الى الحبشة، ولكن علياً (ع) لم يخرج اليها، بل بقي مع رسول الله (ص) يحميه ويحمي الرسالة ضد الشرك. وكان مجموع الذين ذهبوا الى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً <sup>89</sup>. ولكن الهجرة الى المدينة كانت هجرة حقيقية، لان رسول الله (ص) كان عازماً على تأسيس دولته الدينية هناك. وكان مصمماً على التعامل مع الاحداث تعاملأ عالمياً لا ينحصر بأم القرى او قريش او العرب، بل الدنيا كلها. فكانت الهجرة الى المدينة دائمية ولم تكن عملية مؤقتة.

### آيات الهجرة:

ويمكننا تصنيف الآيات القرآنية التي وردت في الهجرة الى اربع طوائف هي: في صفة المهاجرين المؤمنين، وادانة الذين لم يهاجروا من دار الشرك او حرمانهم من بعض حقوقهم، وتقبيد الهجرة بكونها في سبيل الله، وضرورة مساعدة المهاجرين.

### 1- الطائفة الاولى: في صفة المهاجرين

لقد انحصر المسلمون في تلك الفترة بالخصوص بطائفتين، هم: المهاجرون الذين هاجروا من مكة الى المدينة، والانصار وهم الذين آووا النبي (ص) واحتفوا بالمؤمنين المهاجرين ونصروا الله ورسوله (ص). وعدا ذلك، كان هناك قليل ممن آمن بمكة ولم يهاجر.

<sup>88</sup> (سورة المائدة: آية 1.)

<sup>89</sup> («سيرة ابن هشام» ج 1 ص 353.)

فجعل الله بين المهاجرين والانصار ولاية شرعية: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...) <sup>90</sup>. ووصف أعمالهم بأنها اثر من آثار الايمان الحق: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) <sup>91</sup>، ثم وصف الذين هاجروا لاحقاً بالقول: (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ...) <sup>92</sup>. وفضل الله عزّ وجلّ المهاجرين ورفع درجاتهم: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) <sup>93</sup>.

فمن صفات الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، والذين آووهم ونصروهم:

**1-** ولاية بعضهم على بعض، أي التولي بين المهاجرين والانصار، عدا ولاية الارث لانها مختصة بالارحام والقرابة.

**2-** اهم مؤمنون حقاً. فقد اثبتوا في اعمالهم وافعالهم انهم اتصفوا بالصفات الحقيقية للايمان. فوعدهم الله بالمغفرة والرزق الكريم.

**3-** ان الهجرة كانت من لوازم الايمان، فكان يسبق الكلام عن الهجرة كلام عن الايمان بصيغة: الذين آمنوا وهاجروا... فنستفيد مفهوماً ان الاعمال من غير ايمان بالله عزّ وجلّ \_ وبضمنها الهجرة \_ لا فضل لها ولا درجة لصاحبها عند الله.

**4-** اظهر صفة التفاضل بين المهاجرين وغير المهاجرين من المؤمنين. فالؤمن المهاجر اعظم درجة عند الله، لانه بذل ما استطاع في سبيله عزّ وجلّ، من الايمان والهجرة والجهاد.

## 2 - الطائفة الثانية: نفي ولاية غير المهاجرين وادانتهم

وهي على قسمين:

**الاول:** نفت فيه الولاية بين المؤمنين المهاجرين والانصار من جهة وبين المؤمنين غير المهاجرين الباقين في مكة من جهة أخرى، الا ولاية النصر اذا استنصروهم بشرط ان يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم وبين المؤمنين ميثاق. وفي ذلك قال تعالى: (... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى

<sup>90</sup> (سورة الانفال: آية 72).

<sup>91</sup> (سورة الانفال: آية 74).

<sup>92</sup> (سورة الانفال: آية 75).

<sup>93</sup> (سورة التوبة: آية 20).

يُهاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ...<sup>94</sup> . وما نزل في قوم من المشركين اظهروا الايمان للمؤمنين ثم عادوا الى مقرهم وشاركوا المشركين في شركهم: (... فلا تتخذوا منهم أولياءَ حتى يُهاجروا في سبيلِ الله...)<sup>95</sup> فنهاهم عن ولايتهم الا ان يهاجروا في سبيل الله، فان تولوا فليس عليهم فيهم الا اخذهم وقتلهم. فكان على المؤمنين ان يكلفوا هؤلاء المعنيين بالآية بالمهاجرة، فان اجابوا فليوالوهم. وان تولوا فليقتلوهم.

**والثاني:** ادانت الذين ظلموا انفسهم بالاعراض عن دين الله وترك اقامة شعائره من جهة وجودهم في بلاد الشرك ولم يهاجروا الى بلاد الله الواسعة التي يُعبد فيها الله سبحانه دون خوف. فقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)<sup>96</sup> . وفي الآية استثناء منقطع بالمستضعفين الذين لا يتمكنون من الهجرة: (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا)<sup>97</sup> .

ونستلهم مما ذكر من آيات هذه الطائفة مما يلي:

- 1-** حرمان المؤمن غير المهاجر من حق الولاية على المؤمن المهاجر. ذلك لان المؤمن في مجتمع الشرك لا يستطيع ان يمارس امور الدين بوحى ارادته، بل ان الاكراه والضغط من قبلهم يستوجب التقية احياناً.
- 2-** ان امتحان المشركين الذين اظهروا الايمان في البداية وعادوا الى شركهم، كان عن طريق تكليفهم بالمهاجرة الى دار الاسلام. فإن اجابوا كان على المؤمنين موالاتهم. وإن لم يستجيبوا كان على المؤمنين قتلهم. ولكنهم لم يستجيبوا الى ذلك، ففشلوا في الامتحان، وحقّ عليهم القتل لانهم مشركون.
- 3-** ان الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام حيث يعبد الله هي الطريق الوحيد للتخلص من عذاب الله. ففي دار الاسلام يكمن المجال الحقيقي للايمان والعمل والقدرة على نشر الاسلام وتطبيق مصاديق الدين في العدالة بين الناس.

<sup>94</sup> (سورة الانفال: آية 72.

<sup>95</sup> (سورة النساء: آية 89.

<sup>96</sup> (سورة النساء: آية 97.

<sup>97</sup> (سورة النساء: آية 98.

### 3- الطائفة الثالثة: الهجرة الى الله ورسوله

وهي كناية عن المهاجرة الى ارض الاسلام حيث يتمكن فيها المهاجر من العلم بكتاب الله وسنة رسوله (ص) والعمل بهما. قال تعالى: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)<sup>98</sup>، (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوئَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)<sup>99</sup>، (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)<sup>100</sup>، (فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)<sup>101</sup>. والمراد بالمهاجرة الى الله هنا هو هجرة الوطن والخروج الى بلد ليس للمشركين فيه دخل فيمنعونه من عبادة الله. والمهاجرة الى الله من المحازات العقلية.

وقد قيد تلك الآيات: الهجرة، بكونها في الله أو في سبيل الله، لان المثوبة تترتب على صالح العمل. ولا يكون العمل صالحاً ما لم يثبت خلوص النية لله سبحانه، وما لم تنتفِ المقاصد الدنيوية والمصالح الشخصية. ونفهم من آيات هذه الطائفة:

- 1- وقوع الاجر على الله للمهاجر إذا ادركه الموت من وفاة أو قتل، وهو استعارة لفظية بالكناية عن لزوم الاجر والثواب له تعالى واخذه ذلك في عهده. والرزق الحسن هو الاجر العظيم.
- 2- ان الهدف من الهجرة الى دار الايمان وترك دار الشرك هو طلب مرضاة الله وتقوية المجتمع الاسلامي عبر الانسجام والاتحاد والتعاون على البر والتقوى، واعلاء كلمة التوحيد، ونشر العدل بين الناس. بينما كانت الطائفة التي لم تهاجر في سبيل الله تنصر الشرك. ولو أخذنا الآيات على اطلاقها لاستنتجنا بان على المسلم ان يقيم اقامة دائمية في دار الايمان حيث يتمكن فيها من تعلم احكام الدين، ويقدر على اقامة شعائره والعمل باحكامه.

3- قُيدت الهجرة في الله بقيد الظلم الذي تعرض له المسلمون في مكة. ويفهم من تقدير آية (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا...) <sup>102</sup>: الذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا فيه. أي ان المبرر

(<sup>98</sup>) سورة النساء: آية 100.

(<sup>99</sup>) سورة النحل: آية 41 - 42.

(<sup>100</sup>) سورة الحج: آية 58.

(<sup>101</sup>) سورة العنكبوت: آية 26.

(<sup>102</sup>) سورة النحل: آية 41.

الذي دعى المؤمنين للهجرة هو: ظلم الظالم في دار الشرك، وحاجة الاسلام الى المسلمين المهاجرين في دار الاسلام.

**4-** ان اقامة احكام الدين في دار الاسلام تساعد بشكل حاسم على اقامة المجتمع الذي يُعبد فيه الله سبحانه، ولا يحكم فيه الا بالعدل والاحسان. ولذلك ذُيِّت الهجرة بالقول: (لَتُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...) وهو الوعد الجميل بالمجتمع الديني الصالح المستقر.

**5-** الملازمة بين الهجرة والمحن التي تلازم المهاجر، ولذلك نلاحظ توصيف المهاجرين باهم اناس يتحلون بالصبر والتوكل: (... وَالَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)<sup>103</sup>.

#### 4- الطائفة الرابعة: مساعدة المهاجرين في سبيل الله

فقد حثت الآيات الكريمة الاثرياء على عدم التقصير في ايتاء اولي القرابة والمساكين والمهاجرين في سبيل الله من مالهم: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...) <sup>104</sup>. وهذه الآية وردت في معرض حديث الافك، وحثت أولئك الذين أرادوا قطع الايتاء ان يستمروا على اقامة المساعدة. وآية أخرى تقول: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)<sup>105</sup>. وهذه الآية بينت وجهه صرف الخمس في هؤلاء الفقراء المهاجرين ؛ وإعطائهم آياه يعدُّ صرفاً له في سبيل الله. قيل ان النبي (ص) قسّم فيء بني النضير بين المهاجرين ولم يعط منه الانصار شيئاً الا رجلين من فقراءهم أو ثلاثة. والمراد من المهاجرين هم من هاجر من المسلمين من مكة الى المدينة قبل الفتح وهم الذين اخرجهم كفار مكة بالاكراه فتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا الى دار الاسلام.

ونستفيد من ظواهر آيات هذه الطائفة:

**1-** ان المهاجرين اصبحوا من الفقراء، وامسوا مصداقاً من مصاديق صرف الخمس في سبيل الله. ذلك لانهم اضطروا للهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام وهي مدينة رسول الله (ص)، وتركوا أموالهم ومساكنهم، تضحيةً منهم في سبيل الله.

<sup>103</sup> (سورة النحل: آية 42).

<sup>104</sup> (سورة النور: آية 22).

<sup>105</sup> (سورة الحشر: آية 8).

**2- الحثّ على مساعدة المهاجرين في سبيل الله \_ على سبيل الاستحباب \_ لاهم فقراء ضحوا بأموالهم ومتعلقاتهم الاجتماعية من اجل الدين. وورود الآية في معرض حديث الافك لا يخصص المورد، بل يمكن أخذ الآية على اطلاقها.**

### **الهجرة: الابعاد الدينية والاجتماعية**

تعني الهجرة<sup>106</sup> حركة الافراد بصورة نهائية الى مكان جديد، بعد ان يقطعوا مسافة طويلة بواسطة أو مشياً على الاقدام. فالافراد الذين ينتقلون من قريتهم الى قرية مجاورة لا يُعتبر تحركهم هجرة، ولا الذين ينتقلون الى منطقة بعيدة بشكل مؤقت مع انه قد يطلق على ذلك «هجرة» مجازاً. ولكن الهجرة تنلب: الابتعاد عن الوطن مسافة بعيدة، والبقاء في الوطن الجديد بصورة دائمية ونهائية. وقد كانت الهجرة من مكة الى يثرب في غرة ربيع الاول من السنة الثالثة عشرة من المبعث النبوي الشريف هجرة حقيقية، لانها كانت تعني الابتعاد عن الوطن مسافة طويلة، ولان النية كانت استحداث مدينة دائمية لعاصمة الاسلام. وقد تحقق ذلك. ولكن الذهاب الى الحبشة من قبل جعفر بن ابي طالب وعدد من المسلمين تسمى هجرة مجازاً. فهي ليست هجرة حقيقية لان النبي (ص) لم يكن يفكر ببناء دولته في الحبشة، ولا الاستقرار فيها.

### **1- الهجرة الى المدينة: الهجرة الحقيقية**

ولا شك ان الذهاب الى يثرب من قبل المسلمين لم يكن مجرد انتقال عابر من مدينة الى اخرى، بل كانت حركة مخطط لها وكانت هجرة في سبيل الله. وقد أشار القرآن المجيد الى ذلك بالقول: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ...) <sup>107</sup>. وفلسفة الهجرة من مكة الى المدينة \_ التي نورها رسول الله (ص) بوجوده فيها \_ تستبطن فكرة تصرح بانه كانت هناك فرصة لتثبيت الاسلام في موقع آمن ونشره في العالم، بعد ان كان محصوراً في بيوت معدودة في مكة. فلم تكن تلك الهجرة اذن اقتصادية او اجتماعية بل كانت دينية وجهادية بكل ما تعنيه الكلمة. وعندما نتحدث عن الهجرة وندرسها، فان ما يعيننا منها هو المهاجر، فهو أصل الهجرة، ومن أجله ومن اجل الفكرة التي يحملها تمت تلك العملية الشاقة.

(<sup>106</sup>) هذا المعنى منتزع من استقراء موسع لتأريخ البشرية.

(<sup>107</sup>) سورة التوبة: آية 20.

والحور في شخصية المهاجر هو شعوره بالطموح نحو المستقبل، وامتلاء نفسه بالامل في التغيير والبناء. فالفرد الذي لا يقتنع بدوره الاجتماعي والديني في بلده، يبدأ بالتفكير بالهجرة الى مكان جديد من اجل غد مشرق ومستقبل أفضل. وقد كان المهاجرون المسلمون الى المدينة يلمون بتحدي المشركين ومقاتلتهم بالسيف حتى تنتشر كلمة التوحيد في جميع أنحاء الارض. وكان طموحهم يتجاوز اطار الصحراء العربية ليصل الى العالم كله.

ولا شك ان الاضطهاد الديني يُعدّ من اهم العوامل التي تدفع الانسان للهجرة من بلده. وقد عانى رسول الله (ص) وعلي (ع) وبقية المسلمين من ظلم قريش ومحاربتها للدين الجديد. ولذلك فقد كانت الهجرة عملية حتمية. لان التقية مقيدة بعدم القدرة على مواجهة الظالم، ولا يمكن ان تؤدي وظيفتها في ظرف كان يتطلب الانطلاق والتحرك والجهاد في سبيل الله ومقاتلة المشركين. وقد استخدمت التقية على نطاق ضيق في قضية عمار بن ياسر ومسلمين مستضعفين آخرين. ولكن استثمار رخصة التقية لا يمكن ان يستمر هكذا فيحتمق الدين، فكان لابد من التحرك باتجاه المدينة.

وكان ذلك التحرك الجماعي للمسلمين في السنة الثالثة عشرة من المبعث قد غير الخريطة السكانية والسياسية لمكة والمدينة. ذلك ان المهاجرين المسلمين كانوا اصحاب عقيدة يطمحون من هجرتهم تحقيق اهدافهم في نشر الدين الجديد، ولم يكونوا مجرد مهاجرين من اجل مصالح شخصية محدودة وأمل بالاسترخاء، خصوصاً اهل بيت النبوة (ع) ابتداءً برسول الله (ص) وعلي (ع) وبقية بني هاشم كحمزة وجعفر الذي كان في الحبشة، مروراً بأصحاب رسول الله (ص) كعمار وسلمان وأبي ذر والمقداد وغيرهم، وانتهاءً ببقية المسلمين.

فالهجرة المباركة تلك يمكن تشخيص ملامحها عبر تشخيص اهدافها والقوة التي كانت تضعها في المؤمنين بالدين الجديد. فقد كان الجو الايماني الملتهب ضدّ المشركين، والامداد المعنوي الذي كان يمده نزول القرآن المجيد على النبي (ص)، وقيادة رسول الله (ص) للمواجهة بين الايمان والكفر من العوامل الحاسمة في شحن شخصيات المهاجرين. ولم يكن رسول الله (ص) ليهاجر في البداية ليأمن أذى المشركين، بل كان (ص) من أواخر من هاجر. وكان علي (ع) آخر من هاجر من المسلمين مع الفوطم. وبذلك فقد ضرب رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) أروع الامثلة في القيادة الدينية وعدم الاكتراث بالموت.

وفي ضوء ذلك فاننا عندما ننظر الى تلك الهجرة التاريخية العظيمة، فاننا لا ننظر الى حجم المهاجرين وطبيعة شبكتهم الاجتماعية والانسانية، بل ننظر الى النوعية التي هاجرت مع رسول الله (ص) وغيّرت وجه التاريخ وأصبحت قدوة للأجيال الانسانية المتلاحقة. وفيهم اهل بيت النبوة (ع).

ومن اللافت للنظر ان المسلمين هاجروا بشكل مجموعات وجماعات صغيرة وكبيرة، فكان سلوكهم سلوكاً جمعياً يحمي بعضهم بعضاً عدا علي (ع). فقد هاجر علي (ع) مع الفواطم وكان حاميهم الوحيد من أعداء جمعوا كل قواهم المعنوية لمحاربة بطل الاسلام. وكان لحوقهم لعللي (ع) وهو على اطراف مكة ماشياً نحو المدينة خير دليل على ذلك. ولكن علياً (ع) وشجاعته الاستثنائية المستمدة من الايمان بالسماء، جعلتهم يرجعون عن مطاردته فضلاً عن مقاتلته.

لقد كان الايمان الذي دفعه (ع) للهجرة بتلك الطريقة العلنية المتحدية لقريش هزيمة نفسية للمشركين وانتصار للاسلام وأبطاله. فقد نام على فراش النبي (ص) فادياً نفسه، ومكث ثلاثة ايام يردّ الودائع الى اصحابها، وأخذ الفواطم في هجرته (أمه فاطمة بنت اسد ، وفاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص)، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وقيل انها فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب) ودافع عنهن دفاع الابطال عندما ارادت قريش مهاجمتهم. فأى اهانة وجهها علي (ع) لقريش، وأي تمريغ بالتراب مرّغ أنف قريش؟ وأهم من ذلك ان أخطر ما في الهجرة التاريخية من مكة الى المدينة كان: حفظ شخصية رسول الله (ص)، وبذلك حُفظت بيضة الاسلام. وتمت صيانة النبوة والامامة الى أجل مرسوم، حتى تحقق أهدافهما على الارض.

## 2 - التكيّف بعد الهجرة

وكانت الهجرة تفتضي تكيّف انسانياً واجتماعياً مع البلد الجديد وأهله. وقد استقبلت المدينة المهاجرين من مكة واحتضنتهم، ولكن بقيت شريحة من اهل يثرب تعمل ضدّ الاسلام، وهم الذين اتخذوا صفة النفاق والكيد ضد الدين الجديد. وكان في مقدمتهم عبد الله بن ابي سلول، رأس النفاق. وقد وصفهم القرآن الكريم بالقول: (وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا . قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)<sup>108</sup> ، (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)<sup>109</sup> . فهؤلاء المنافقين خذلوا المسلمين لاحقاً قبل ان تبدأ المعارك الكبرى، وثبطوا الناس عن القتال فكانوا اقرب الى الكفر منهم الى الايمان. فليس غريباً ان يعادي هؤلاء المنافقون المهاجرين ويعتبرونهم ثقلاً جديداً على مدينتهم.

(<sup>108</sup>) سورة آل عمران: آية 167.

(<sup>109</sup>) سورة آل عمران: آية 168.

لقد رافقت عملية الهجرة مشقة عظيمة انحصرت بشخصيات المهاجرين كالبعد عن الاهل وصعوبة التكيف وضنك العيش، الا ان طبيعة المبادرة بقيت بيد النبي (ص). فهو الذي كان يقود مجتمع المدينة وينظم شؤون الدولة والافراد بما كان يوحيه اليه وحي السماء. فقد آخى (ص) بين المهاجرين والانصار، وآخى (ص) بينه وبين علي (ع)، وهو الذي كان يدعوهم جميعاً للقتال فيساهموا فيه ويشتركوا في تحمل أعبائه الباهضة عدا ما يكون عند بعض الذين في قلوبهم مرض.

ولا شك ان المؤاخاة التي أعلنها رسول الله (ص) بين المهاجرين والانصار كان لها هدفان. الاول: اعادة تأهيل المهاجرين نفسياً واجتماعياً. والثاني: دمج مجتمع المهاجرين بمجتمع الانصار وتوحيدهم عقائدياً تحت راية الاسلام.

بينما كانت مؤاخاته (ص) مع علي (ع) تهدف الى تثبيت موقع علي (ع) منه (ص) ومن الرسالة ايضاً، حتى لا يفقد الذين اعماهم الحقد الجاهلي نظرهم الواقعية لشخصيته الرسالية (ع) في خضم مشقة الهجرة وواقع المجتمع الجديد.

«قال ابن اسحاق: وآخى رسول الله (ص) بين اصحابه من المهاجرين والانصار... ثم اخذ بيد علي بن ابي طالب، فقال: هذا اخي»<sup>110</sup> ثم علّق ابن اسحاق قائلاً: «فكان رسول الله (ص) سيد المرسلين، وامام المتقين، ورسول ربّ العالمين، الذي ليس له خطير<sup>111</sup> ولا نظير من العباد، وعلي بن ابي طالب (رضي الله عنه) أخوين»<sup>112</sup>، بينما كان حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله (ص) وعم رسول الله (ص)، وزيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) أخوين<sup>113</sup>.

وعلق السهيلي على ذلك على ما في هامش «سيرة ابن هشام»: «آخى رسول الله (ص) بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة، ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الاهل والعشيرة، ويشدّ أزر بعضهم ببعض. فلما عزّ الاسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة انزل الله سبحانه: (... وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله...)»<sup>114</sup> يعني في الميراث. ثم جعل المؤمنين كلهم اخوة فقال: (إنما المؤمنون إخوة...)»<sup>115</sup> يعني في التوادم، وشمول الدعوة»<sup>116</sup>.

<sup>110</sup> «سيرة ابن هشام» ج 2 ص 150.

<sup>111</sup> ليس له خطير: أي ليس له نظير.

<sup>112</sup> «سيرة ابن هشام» ج 2 ص 150.

<sup>113</sup> م. ن. - ج 2 ص 150.

<sup>114</sup> سورة الانفال: آية 75.

<sup>115</sup> سورة الحجرات: آية 10.

<sup>116</sup> «سيرة ابن هشام» ج 2 ص 150 هامش رقم 4.

وقد كانت تلك الهجرة فريدة من نوعها، لان المهاجرين كانوا بحاجة الى تكيف اجتماعي ؛ بينما كان المهاجرون والانصار معاً بحاجة الى تكيف عقلي ونفسي مع العقيدة الجديدة. ولذلك كان دور علي (ع) الفكري والحربي البطولي والروحي وزهده في الحياة \_ في دار الهجرة الجديد \_ مهماً في تثبيت اسس الاسلام ورسالته الخالدة. وبالخصوص من خلال كفاحه مع جيش النبي (ص)، وجهاده في نشر مباني تلك العقيدة وتعليم القرآن، وضربه المثل الأعلى في القدوة.

ولم يكن التكيف الاقتصادي للمهاجرين سهلاً، فقد بقي اغلبهم فقراء من أهل الصفة والفاقة، لا يملكون ما ينفقون. يروى ان صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد ان تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك! فقال لهم صهيب: أرأيتم ان جعلت لكم مالي أتخّلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فاني جعلت لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسول الله (ص). فقال: ربح صهيب ربح صهيب<sup>117</sup>.

وكان المهاجرون يصحبون رسول الله (ص) ويشتركون في قتال المشركين في الحروب التي خاضها (ص). وبقي علي (ع) زاهداً في معاشه وحياته. فقد كان يقاتل قتال الابطال ويشد على بطنه الحجر من الجوع.

ولكن التكيف الاجتماعي والنفسي السريع كان مصحوباً بنزول القرآن المجيد على النبي (ص) وايصاله الى المسلمين جميعاً. وكان القرآن وسنة رسول الله (ص) تخلق وضعاً قانونياً جديداً للمجتمع الاسلامي الحديث، خصوصاً فيما يتعلق بالعقود، والنكاح، والارث، والتعامل مع المؤمنين، والعبادات الجماعية. فكانت الاحكام الشرعية تثري المجتمع الجديد بقوانين النظام والحركة والعمل المشترك.

ان التكيف السريع الذي تم بين المهاجرين والانصار كان متوقفاً على المدى القصير. لان الطرفين كانا يحملان تشابهاً وانسجاماً في التركيبة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. ولكن ظهر الاختلاف واضحاً جلياً يوم السقيفة بعد وفاة رسول الله (ص) عندما تنادوا: منّا امير ومنكم امير<sup>118</sup>.

ولكن علياً (ع) الذي آخاه رسول الله (ص) مع نفسه أول الهجرة لم يكن يفكر بذلك الفصل بينه وبين رسول الله (ص)، كما كان بعض الانصار والمهاجرين يفكر بعد وفاته (ص). فقد كان الانسجام الديني تاماً بينهما (عليهما السلام)، بل كان علي (ع) جزءاً من رسول الله (ص) يحمل هم العقيدة، وينظر الى ما بعد فترة المصاعب والمشاق، وكان (ع) يرى اهداف الاسلام المستقبلية بنور الله عزّ وجلّ.

(<sup>117</sup>) «سيرة ابن هشام» ج 2 ص 121.

(<sup>118</sup>) «فحج البلاغة» - مقدمة خطبة 62. ص 103.

لقد كانت حياة علي (ع) مبنية على الهجرة في سبيل الله، والحركة من موضع الى آخر من أجل اعلان الاسلام. فقد انتقل من مكة الى المدينة، ومن المدينة الى الكوفة، وانتقل في معاركه من المدينة الى البصرة، ومن الكوفة الى الشام. وبكلمة، فلم يركن الى العيش الرغيد في منطقة آمنة يسترخي فيها، كما كان البعض يتوقع. بل كان يتحرك \_ بيقين \_ حيث ما يُرضي الله تعالى ويُرضي رسوله (ص).

### اخلاقية رد الامانات الى الناس

أقام علي (ع) بمكة بعد هجرة النبي (ص) الى المدينة يرد الودائع ويقضي الديون<sup>119</sup>. وكان وضعه (ع) الامني مع المشركين في مكة خطيراً للغاية، فما الذي دعاه لذلك؟ ان الحديث عن رد الامانات الى الناس يقودنا الى الحديث عن الاخلاقية الدينية عند علي (ع) والتي تعلمها من رسول الله (ص).

فلا شك ان اهم ثمار الشخصية الاخلاقية التي كان يحملها (ع) هو ان سلوكه بين الناس كان ترجمة عملية لمفاهيم الدين. فهو الاسلام المتحرك في المجتمع، ومن هنا كان سلوكه الاخلاقي متطابقاً مع النظرية الاخلاقية للسماء. ومن الطبيعي فان السلوك الاخلاقي في رد الامانات والودائع وقضاء الديون يساهم في نشر الانسجام الديني والاخلاقي بين الناس. ومع ان مجتمع مكة كان مشركاً، الا ان العديد من افراده كانت عندهم القابلية على اعتناق الاسلام اذا لمسوا من أحكام الدين تغييراً في حياتهم الاجتماعية والاخلاقية.

فكان رد الامانات التي كانت بعهدة رسول الله (ص) الى الناس مهمة \_ من الناحية الاخلاقية \_ الى درجة ان تلك الاهمية كانت متناسبة مع حجم الخطورة التي كان يواجهها علي (ع) وهو في مكة دون مناصر. ورد الامانات تعدُّ من القيم الاخلاقية التي يحنُّ لها المجتمع الانساني ايّاً كان منشأه وايّاً كانت اهدافه وطموحات اعضائه ومنتسبيه. ولا شك ان فضيلة الوفاء برد الامانة كان قد أمضاها الدين الحنيف، بينما اوكل رسول الله (ص) علياً (ع) بتنفيذ تلك المهمة الصعبة. ومن هنا نفهم امضاء الدين الاتفاق الاجتماعي حول الوفاء برد الامانة، لانها عمل خير يؤدي \_ عاجلاً أو آجلاً \_ الى استتباب الامن الاجتماعي والاقتصادي بين الناس، واظهار الروحية المثلى للمسلم الملتزم بتعاليم الاسلام. وبذلك فقد عمل الاسلام في اشارة الامور التالية: اولاً: ان الوفاء برد الامانات كان عملاً اخلاقياً امضى فيه الاسلام عمل رسول الله (ص) قبل البعثة وبعدها. حيث اؤتمن (ص) على اموال الناس وحاجاتهم، ولذلك شاع عنه (ص) بانه الصادق الامين.

(<sup>119</sup>) «الطوائف» - ابن طاووس ج 1 ص 34.

**ثانياً:** لم تؤخذ في قضية الوفاء برد الامانة حجم الخسارة والربح من حيث احتمالية مقتل علي (ع) من قبل مشركي قريش او انزال مطلق الاذى به (ع). وبذلك يعدُّ الوفاء برد الامانة من الاعمال الاخلاقية التي تنظر الى قيمة العمل، لا الى حجم الربح والخسارة.

**ثالثاً:** ان الوفاء برد الامانات طُبِّقَ على المجتمع الوثني الكافر. حيث ان اغلب الذين ائتمنوا محمداً (ص) بعد البعثة ولم يهاجروا الى المدينة وبقوا في مكة كانوا من الذين لم يسلموا بعد. ولذلك بقي علي (ع) في مكة لردها. ولو أسلموا لهاجروا. نعم بقي عدد قليل من المسلمين في مكة في الخفاء. ولكن لسان دليل الروايات المتعلق بهذه المسألة لا يخص تلك القلّة، بل ان ظهور اللفظ يدل على اطلاقها على المسلمين وغيرهم. وفيه قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...) <sup>120</sup>. وردّ الامانة الى الكافر فضلاً عن المسلم تعدُّ قيمة أخلاقية تُتلى بتناها الاسلام، وحثّ اتباعه والمؤمنين به على تطبيقها في حياتهم.

**رابعاً:** متانة الرابط بين الاخلاق والدين. فالاسلام هو الذي امر برد الامانات الى اهلها، حتى لو كان اصحابها من المشركين. فيكون الوفاء برد الامانات من القيم الدينية الاجتماعية. ذلك ان الدين واحكامه الشرعية تدعوان الى القيم الاخلاقية الفاضلة، وحثية تطبيقها على النظام الاجتماعي.

**خامساً:** كان الوفاء برد الامانات من قبل الدين احتراماً للفرد المؤمن، ولا يمثّل احتراماً لسلطة المشركين من قريش. وبذلك فقد كان الحكم هنا تحكيمياً للحق على الباطل على مستوى شريحة خاصة من الافراد من الذين وضعوا ثقتهم برسول الله (ص).

وبكلمة أخيرة، فان الوفاء برد الامانات الى اهلها كشف عن قدرة الدين الفعالة على التمييز بين الابعاد الموضوعية والذاتية للقيم الاخلاقية. فقد كانت تضحية الامام (ع) في البقاء ثلاثة ايام متواصلة في مكة تضحية ذاتية، رغم المخاطر المحيطة به، من اجل ان يبقى موضوع الوفاء برد الامانات حكماً ثابتاً يلتزم به المؤمنون الى يوم القيامة.

(<sup>120</sup>) سورة النساء: آية 58.